

الفكير فريضة إسلامية

تأليف
عباس محمود العقاد

طبعة : هنا سحر الألفية
أكبر مكتبة رقمية

دار نهضة مصر للطبع والنشر
القاهرة - القاهرة



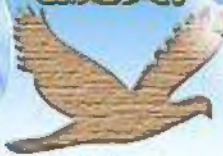
عبد بن محمود العقاد

الفكر فريضة إسلامية



دار نهضة مصر للطبع والنشر
القاهرة - القاهرة

لجرام



سعد الزبيدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فريضة التفكير في كتاب الإسلام

من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تليق من تلاوة الآيات ثبوتاً تزيد أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير . قبل الرجوع في تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء .. وثالث المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف .

ففي كتب الأدب والكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز . ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحاديث شيئاً من الزيادة بالعقل أو التحذير منه . لأنه مرة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار ..

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضية في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة . وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي بحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها التفسيريون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا يتحصر خطاب العقل في العقل الوازع ولا في العقل المدرك ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق

والحكم الصحيح . بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن
الإنسانى من خاصة أو وظيفة ، وهى كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام
المجمل . إذ هى جميعاً مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل
المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعانى والأشياء ..

فالعقل في مدلول لفظه العام ملكة بناط بها الوازع الأخلاق أو المنع عن المحظور
والمنكسر ، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة «عقل» التى يؤخذ منها العقال . وتكاد
شهرة العقل بهذه التسمية أن توارى في اللغات الإنسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات
الملايين من البشر . فإن كلمة «مايند» Mind وما خرج من مادتها في اللغات الجرمانية
تفيد معنى الاحتراس والمبالاة وينادى بها على العاقل الذى يحتاج إلى التنبيه ،
ونحسب أن اللغات في فروعها الأخرى لا تخلو من كلمة في معنى العقل لما دلالة على
الوازع أو على التنبيه والاحتراس ..

ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التى بناط بها الفهم والتصور . وهى على
كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاق وإدراك أسبابه وعواقبه تستقل أحياناً بإدراك
الأمر فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي أو بالمحسّنات والمسيئات ..

ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه
بواطنه وأسراره ويبني عليها نتائج وأحكامه ، وهذه الخصائص في جملة ما يجمعها
ملكة والحكم وتتصل بها ملكة الحكمة ، وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت
حكمة الحكم به إلى العلم بما يحسن وما يقيح وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن
يأباه ..

ومن أهل خصائص العقل الإنسانى «الرشد» وهو مقابل تمام التكوين في العاقل
الرشيد ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها
استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث
لا نقص ولا اختلال ، وقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك وقد يؤتى العقل الوازع
من نقص في الحكمة ، ولكن العقل الرشيد يتجو به من هذا وذاك ..

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها . فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر للعقل عرضاً مقتضياً بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان ..

• • •

: فن خطابه إلى العقل عامة - ومنه ما ينطوي على العقل الوازع - قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُتُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا
يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْبَتَ بِهِ
الْأَرْضَ بِعَدَّةٍ مُوقِنَةٍ وَبَشِّرْ فِيهَا مَنْ كَلَّ دَابَّةً وَتَصْرِيفِ
الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْفِرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا بَشَرٌ
لَقَدْ يَنْقَلِبُونَ ۝١٦﴾

ومنه في سورة المؤمنون :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٥﴾

ومنه في سورة الروم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ
أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكَ دَعْوَةً
مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتَ تَخْرُجُونَ ۝١٠ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَتِينٌ ۝١١ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٥﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلَيْنِ
 أَنْفُكُمَا هَلْ لَكُمْ مِنْ مَمْلَكَةٍ أُيُتِنْتُمْ مِنْ مُرْكَاهٍ
 فِي مَارَاقِنُكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنْفُكُمَا
 كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

ومنه في سورة العنكبوت :

﴿ وَتَكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

ومنه ما يخاطب العقل وينطوي على العقل الوازع كقوله تعالى في سورة الملك :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿١٨﴾

وفي سورة الأنعام :

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الصُّلُوحَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

وَمَا بَطَّنْ وَلَا تَفْتُلُوا أَنْفُسَ الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

ذَلِكَ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

ومنه بعد بيان حق المطلقات في سورة البقرة :

﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾

ومنه في سورة يوسف :

﴿ وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِ

الْقُرْآنِ أَقَلَّمْ بِسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاجِلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِنَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

ومنه في سورة الحشر . يأتنا لأسباب الشقاق والتدابير بين الأمم :

﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ١١ ﴾

وهذا عدا الآيات الكثيرة التي تبدى بالزجر وتنتهى إلى التذكير بالعقل . لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان . كقوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ أَمَّا مَنُورُونَ أَنَاسٌ بِالْبَیْرِ وَتَقْسُونَ أُنُوسًا وَأَنَّمْ لَّيْلُونَ الْكِتَآبِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١١ ﴾

وكقوله في سورة آل عمران :

﴿ يَتَأَمَّلِ الْكِتَآبِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِزْمِهِمْ وَمَا

أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٥ ﴾

وكقوله تعالى في سورة المائدة :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ أَخَذُوا مِرْزَا وَلَبَّٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ٥٨ ﴾

وفي سورة الأنعام :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَلَقَدْ آتَيْنَا خَيْرًا

لِّلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٦ ﴾

وفي سورة هود :

﴿ يَنْقُومُ لَا تُسْطَكِرُ عَلَيْهِ إِبْرَآءُ إِنِ اجْتَمَعَ لِأَعْيُنِ الْقَدْرِ

فَكَرَرَتْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦١ ﴾

وفي سورة الأنبياء :

﴿ أَفَ لَئِكَ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٢١ ﴾

• • •

وفي غير هذه السور الكرمة تنبيه إلى العقل في مثل هذا السياق يدل على ما تقدم في هذه الآيات .

إن هذا الخطاب المتكرر إلى العقل الوازع يضارعه في القرآن الكريم خطاب متكرر مثله إلى العقل المدرك أو العقل الذي يقوم به الفهم والوعى وهما أعم وأعمق من مجرد الإدراك . وكل خطاب إلى ذوى الألباب في القرآن الكريم فهو خطاب إلى اللب - هذا العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان كما يدل عليه اسمه باللغة العربية ..

• • •

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ ① ﴾
(سورة آل عمران)

• • •

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْغَثِيُّ وَالرَّاسِخُ وَلَوْ أَحْبَبَ كَثْرَةُ الْغَثِ مَا تَقْرَأُ اللَّهَ يَتَأَوَّلُ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ② ﴾
(سورة المائدة)

• • •

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ ③ ﴾
(سورة الزمر)

• • •

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ④ ﴾
(سورة يوسف)

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ ⑤ ﴾
(سورة البقرة)

• • •

﴿ وَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْكُلِ الْآلَتِيبَ ١٥٧ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَلَكِّرْ فِي الْقِصَاصِ حَيَّةٌ يَأْكُلِ الْآلَتِيبَ لَعَلَّكَ تَتَّقُونَ ١٥٨ ﴾

(سورة النقرة)

ومن هذه الآيات تنبئ أن اللب الذي يعاطيه القرآن الكريم وظيفته عملية تحيط بالعقل اوارع والعقل المدرك والعقل الذي يتلقى الحكمة ويتعبد بالذكر والذكرى . وحطاه حطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من المهيم والوعى أوفر من نصيب لعقل الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى إلى مرحلة الرسوخ في النعم والغبير بين لطيب والخبث والغبير بين الحسن والأحسن في القول

أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره رنده الرأى والرؤية فالنقراب لكرم يعبر عنه بكتابات معددة تشترك في المعنى أحياناً وبمرد بعضها معده على حسب السياق في أحيان أخرى . فهو العكر والنهر والبحر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم ومماثر هذه المنكات الذهبية التى تنصق أحياناً في المدلول كما قدمنا - ولكن لا نستمد من كلمة واحدة نعى عن سائر الكتابات الأخرى

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَآذَا يُعِقُونَ قُلِ أَعْمُوا كَذَلِكَ مَبْنِىُ اللَّهِ لَكُمُ الْآيَاتِ ١٥٩ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٦٠ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُرْعًا وَعَلَىٰ جُودِهِمْ وَيَسْعَرُونَ فِي حَلْقِ ١٦١ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ١٦٢ ﴾

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٤)

(سورة الأنعام)

﴿ بَنَيْتُ لَكُمْ فِي الزَّرْعِ وَالْحَبِّ وَالشَّجَرِ الْأَعْنَابِ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١١)

(سورة النحل)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا يَلْقَئَهُ ﴾

(سورة الروم)

﴿ أَنْظَرَ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ لَهُمْ بِفَقْهُوتٍ ﴾ (٥٦)

(سورة الأنعام)

﴿ أَوَلَمْ يَسْأَلُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(سورة الاعراف)

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْمِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١١)

(سورة يونس)

﴿ أَفَلَمْ يَطُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَاسَهَا وَمَا لَهَا مِنْ

(سورة ق)

فُرُوجٍ ① ﴾

• • •

﴿ أَفَلَا يَطُرُونَ إِلَى آلِ إِبْرَإِيلَ كَيْفَ خَلَقَتْ ② ﴾

(سورة العاشية)

• • •

﴿ مَنْ لَئِنْ غَيْرَ اللَّهِ يَدْعُونَ بِلَيْلٍ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ③ ﴾

(سورة القصص)

• • •

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُودِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ

(سورة السجدة)

مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ④ ﴾

• • •

﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ⑤ ﴾

(سورة آل عمران)

• • •

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَا يَلْتَمِسُ عَنْهُمُ الْأُولَئِينَ ⑥ ﴾

(سورة المؤمنون)

•

(سورة ص)

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِنَا، ﴾

• • •

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرْدَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْصَحًا ﴾ (سورة محمد)

• • •

﴿ فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتِهِمْ
يَايُدِهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاصْبِرُوا يَتْلُو الْاَنْصُرُ ① ﴾ (سورة الحشر)

•

﴿ وَبَشِّرْ عَائِشَةَ لِلْبَاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ② ﴾ (سورة القرة)

• •

﴿ وَمَعَا صَرَأُ رَبِّكَ مُنْتَقِمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ③ ﴾ (سورة الأعمام)

•

﴿ أَقْنِ بَعْمُ أَمَّا أَرْزَلُ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى أَمَّا يَتَذَكَّرُ
أُولُوا الْأَلْبَابِ ④ ﴾ (سورة الرعد)

• • •

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكَ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا ⑤ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ⑥ ﴾ (سورة الحبل)

•

﴿ أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ⑦ ﴾ (سورة عس)

•

﴿ فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ (سورة الحبل)

﴿ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَبَ مِنْ نَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ
بَصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة القصص)

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾
(سورة البقرة)

﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ
سَعَةً مِنَ الْمَالِ فَإِنْ أَفْتَدِ اصْطَفَيْنَا عَلَيْكَ وَرَادَهُ تَسْطَافٌ فِي أَعْيُنِنَا
(سورة البقرة)

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمُ الْجُودَ لِتَهْتَدُوا بِهَا يَ ظَلَمْتِ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة الأسماء)

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾
(سورة الزمر)

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة المجادلة)

﴿ هُوَ الَّذِي جَمَعَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحَسْبُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَعِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(سورة يونس)

• • •

﴿ قَالَ لَقَدْ مُرِمْنِي مِنْ أَنْتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّنِي مِمَّا عُلِّتَ رُشْدًا ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

• • •

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٦٢﴾ عَلَيْهِ الْبَيِّنَاتِ ﴿٦٣﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

• • •

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٦٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة علو)

• • •

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تِلْوَ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسْمُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ

رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْسِنَةِ ﴿٦٦﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

•

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم مريضة التكبير في الإسلام .
وتبين منها أن لعقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يصمم الصمم ويدرك
الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر وحسن الذاكرة
والرواية . وأنه هو العقل الذي يقاومه الحمود والعت والصلوات وليس بالعقل الذي
قصاراه من الإدراك انه يقابل الحوق فإن الحوق يسقط التكليف في جميع لأديان
والشرائع وفي كل عرف وملة . ولكن الحمود والعت والصلوات غير مسقط
للتكليف في الإسلام . وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمحمود حموه . فإنها
لا تلغى الملامة ولا تمنع المؤاخفة بالتقصير .

ويدب الإسلام من يدين به إلى مربة في التكبير أعلى من هذه لمربته التي تدفع

عنه الالامة أو تمنع عنه المؤاحدة . فيستحب له أن يبلغه بحكمته ودرشده . ويدور فضل الحكمة والرشد على عمد العقل والفهم من آيات متعددة في الكتاب الكريم بدل عليها قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(سورة البقرة)

ويدل عينا أن الأنبياء يطلبون الرشد ويتبعون عيا به من عباد الله الصالحين ، كما جاء في قصة موسى وأستأذه عليها السلام ..

واندى يسمى أن ثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف حصائنه لم يأت في القرآن عرصا ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المتعدد . بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة مستظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره ..

فاندين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السندة والأخير بين المصنوق والمخالق ، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسمى به إلى اهراب بشماعة من ولى منسبط أو صاحب قداسة مطاعة ، فلا ترحان فيه بين الله وحدده يملك التحريم والتحليل ويقضى به حرمان أو بالنسحة . فليس في هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان . ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حراً صليقاً من سلطان امياكل والمجارب أو سلطان كهانها الصكين فيها بأمر الإله المعبود هما يدين به أصحاب المهادات الأخرى ..

﴿ قَابِضًا ثَوَلًا أَقْبَمَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾

(سورة البقرة)

لا هيكل في الإسلام ولا كهانة حيث لا هيكل .. فكل أرض مسجد ، وكل من في المسجد واقف بين يدى الله ..

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب - بداهة - إلى غير الإنسان العاقل حراً صليقاً من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتكبير لسميع

كذلك يكون الخطاب في الدين الذي يرم كل إنسان طائره في عقه وحسنه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة فاطر)

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (سورة الطور)

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (سورة النجم)

(سورة النجم)

فإذا كان في الأديان دين يتجلى القيلة سبها أو يتجلى المرء قبل مبدئه لأنه موجد بها . أو كان في الأديان دين يخاطبه على حطية ليست من عمله . هيس في لإسلام إنسان ينجو بالملاد أو يهلك بالملاد . ولكنه الدين الذي يوكل فيه لخدمة ولغلاك يسعى لإنسان وعمله . ويتوفى فيه الإنسان هدايته فهمه وعقده . ولا يطل فيه عمل العقل أن الله بكل شيء محيط . فإن خلق الإنسان للعقل لا يسبه لقدرة على التفكير ولا يسله نعمة الصلال والتفكير

وعلى هذا النحو يتأسس جوهر الإسلام ووصاياه وتأتي فيه الوصايا المتكررة بالعقل والتجرب متتمة مقدرة لاموضع فيها لمصادفة ولا هي مما يطرد انقوب فيه متخفا غير متصل على سبق مرسوم فإنها لوصايا منطقية في دين يفرص لمطلق الاسم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم . وهكذا يكون الدين الذي تصل المادة فيه بين الإنسان وربه عبر واسطة ولا محاباه . ويخاطب فيه الإنسان بعينه كي يهديه به عقده . ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد

الموانع والأعذار

حين يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق يتمتع على المخلوق أن يعطل عقله مرصدة مخلوق مثله . أو حوقاً منه . ولو كان هذا المخلوق حمهرة من الخلق تحبب بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال ..

والموانع التي تعطل العقل من هذا القبيل كثيرة يستصعب القراء الكريم كي استغنى خطاب العقل جميع وظائفه وملكانه . ولكنها قد تتجمع في ثلاثة موانع كبرى بمثابة لأصول التي تنشعب منها الموانع اعلمته . فمن سلم بها أو شك أن يسر من كل مانع يحجر عن عقله ويأخذ السبل على تفكيره فلا يبتدى إلى رأى سواه أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة السلف التي تسمى بالعرف . والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الأدبية . والحقوف المهين لأصحاب السلطة الدسوية

والإسلام لا يقبل من المسلم أن يلقي عقله ليجرى على سدة تائه وأحداذه ولا يقبل منه أن يلقي عقله حوقاً لم يسحره باسم الدين في عمره برضى العقل وادب ولا يقبل منه أن يلقي عقله رهبة من بطش الأقوياء وطعان الأشداء . ولا يكفنه في أمر من هذه الأمور شغلطاً لا يقدر عليه إلا القرآن الكريم يكرز في غير موضع أن الله لا يكلف عبداً ما لا طاقة لما به . ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون

﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة البقرة)

﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة الأنعام والأعراف والمؤمنون)

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا مَا
 مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ
 لَسِيئَاتٍ أَوْ آخِطَانًا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا عِلًّا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ
 عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

(سورة البقرة)

وما من أحد يهتدي بعقله لا يسهه أن يرى المصواب وأن يكف عن الخطأ فإذا
 قسر على سد المصواب واقترب الخطأ في وسعه أن يسجد نفسه من القصر حيث
 كان . وفي وسعه إذا حيل بينه وبين السجدة أن يلقى الضرر الذي يجنيه عليه من يهدر
 كرامته ويقتل سميره . فذلك لا ريب أهون الضررين في هذه الحال . ولا معنى
 للدين ولا للحلق إذا حار الناس أن يحشوا صرراً يصيب أحسانهم ولا يحشوا صرراً
 يصيبهم في أرواحهم وصيائهم . وينزل بحياتهم الناقية إلى ما دون الحياة التي ليس لها
 نقاء وليس فيها شرف ولا مروءة

• • •

وهذه امريع كنها - مواضع العرف والفكرة العمياء والخوف الدليل - هي تقوم
 وتبقى قائمة ما هان على الإنسان أن يمشي بعير عقل يرجع إليه في أكرم مطاله
 « الإيسية » وهو صلاح سميره . ولكنها تولد على الأثر يوم يرجع إلى عقده آدم كل
 عقبة من عقباتها . وقد يشت عليه أن يدلل تلك العقبات أو يناحرها . ولكنه حتى
 يفعل عبه ولا بد من حتى تهون من أحله المشقة . لأنها أهون من سبب لإسناد
 فضيلته لعب ورتكابه إلى حياة لا تعقل أو حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة على عمنها
 بما هو أرفع منها ..

إن حتى العقل في الإسلام يقاس بكل قوة من قوى تلك المواضع التي ترصد
 ونصده عن طريقه . وأولها وأقواها في صدر الإسلام قوة العرف أو عبادة السلف .

لأن تعرف في الحاهية بلغ مبلغ العبادة في المهابة والرعاية وتسخير المومس حكمته بما يعرضه عليها من العادات . وما هي في الواقع إلا صرير من العادات يملك الاستبداد في جميع أوقاته وعلاقاته . حيث تتراسخ عنه أحياناً سطوة العادات انديسة . ولعل العادات الدينية لم يكن لها من سطوة في عصور الحاهية وما شابهها إلا لأنها تستمد تلك السطوة من العادات ..

كانت الدعوة الإسلامية تثير أهل الحاهية وتحققهم أشد الحق على الرسول القديم بها صوات الله عليه . وأشد ما كان يحققهم من دعوته أنه سبى بها أحلام الآباء والأجداد . فعلموا كانوا يقولون في مقام العصب منه والتحريض عليه إنه يسبهم أحلامنا ويستحق عقولنا . وإنما كان عصم كنهه من تحريضهم كله عليه إذ يقولون عنه أنه يسف أحلام آبائنا ويستحق عقول أسلافنا . ويقول عن أصول السب التي يعفرون بها أنها كانت على صلالة وكنت لا تعقل ما تصنع من أمور الدين .

والإسلام حين يأتي على الإنسان أن يعو بعقله كله لهذه السطوة الحاهية . يعطى العقل حقه في مقاومتها ولا يكتفى بأن يعرض عليه واجب المقاومة . وإنما يحده بالحجة التي تسيه عيبها حيث لا حجة له بين يديها فهو يكلفه ويصبه وهو يشيره ويصع في يده السلاح الذي يشجده في ثوره . فهو يصبر معين بلقي العف ويعطى المدد الذي يميمه عليه ..

وحين يقول الإسلام للإنسان يحبك عليك أن تمنح عيذك ولا تقدر لما يوبقك معصن العيدين ، فكأنه يقول له يحق لك أن نظري شأنتك ، بل في أكبر شأن من شئون حياتك ، ولا يحق لآبائك أن يجعلوك صيحة مستسلمة لجهالة التي درجوا عليها .

وإن الإسلام ليأتي على المرء أن يحيل أعداده على آثاته وأجداده . كما يأتي له أن تحل عيبه اندبوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد ، وإنه ليسعى على اندبين يسمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة العقل لأهم ورثوا من آباءهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها ..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْقَبَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ۖ﴾

أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ (سورة النقره)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا

﴿ وَإِذَا مَعَلُوا مَنَاسِكَةً قَالُوا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا وَأَنَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ أَحَدٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَ إِلَهِنَا عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ﴾

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَارًا زَاهِيَةً ۝١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

﴿إِنَّهُمْ أَلَقَوْا آيَاتَهُمْ ضَالِّينَ ۝٩٩ فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يَعْرُونَ ۝١٠٠﴾

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْذَرُوا ءَامَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَئِكَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ (سورة التوبة)

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَعُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
ءَامَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِنَا لَمُقَدِّمُونَ ﴿٦٦﴾
﴿ قُلْ أُولَئِكَ حُفَّتْ أَعْدَىٰ عِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَامَةً كُفْرًا
قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (سورة الزخرف)

ولقد كان هذا حق العقل الذي استمدته من الإسلام في مواجهة عرف أو عادة السلف . وكانت تعرف في صدر الإسلام قوة أكثر من قوة العبدية وقوة الحكومة . ويستوى أن يقول إن العقل أحق بالاستقلال أمام هاتين القوتين وأن يقول إن الاستقلال أمامي أوجب عليه من الاستقلال أمام العرف أو عادة السلف . ولعب لا يعدو مصواب إذا عمنا القول على جميع العصور وله نقصره على العصر الحديث الذي كانت فيه عادة السلف أظلم للناس من سطوات رجال الدين وسلطان الحكام بأمره . فلن حرية العقيدة قد يرجع الأمر فيها إلى من يتولون أمرها من القائلين عليها في المعابد والمجرب أو من القائلين عليها في ولاية الشعائر والمخلوق . فهنا مجال الحق لدى يتمسك به لعقل حيث تدعو الحاجة إلى ذلك الحق . أو حيث يستوحه لخطر في أمر الاعتقاد خاصة دول ما عداها من أمور يعنها العرف المشايخ أو تعنها عبادة الأسلاف .

وأياً كان الرأي في تفاوت القوى التي يع بها العقل وتدهبه عن حقه في الحرية أو عن وجهه في التغيير والتجديد بالسعة . فالأمر الذي لا مربة فيه أن التحذير من

فساد الكهان والأخبار حيوي أن ناسب الخطر الذي عشنا من فسادهم أيضاً كان وكثيراً ما يكون .

وقد بدأ الإسلام بالتحذير الشامل من هذا الفساد فأسفاه الكهانة ونزل سلطان رجال الدين على القيائل ونفى عنهم القدرة على التحريم والتحليل والإدانة والعفران ..

ثم سه إلى سيطرتهم وعاقبة الدين استسلموا لخديعته وكثير منهم حادعون

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَّانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٦ ﴾
(سورة التوبة)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كُنْتُمْ مِنَ الْآخِبَارِ وَالرَّهْبَانِ لْيَاكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالسَّخَطِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ بَكَرُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَسْغُرُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ١٧ ﴾
(سورة التوبة)

وحرص القرآن على أن يتم الفول من ضم سلطان ديني كالأخبار ومن ليس هم هذا السلطان ولكنهم يستمدون من السمعة الدينية نصياً من السلطان لا يقل عن نصيب الأخبار ..

وهذا على تنبيه القرآن الكريم إلى ما كان من فصل الصالحين من لرهان والفسسين عن أجمعهم حيث جاء فيه من سورة المائدة

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَآتٍ بِكُمْ ۚ ﴾

مِنْهُمْ قَبِيلَيْنِ وَرَهْبَانًا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾ (سورة المائدة)

ومعنى أن التفرقة بين الفريقين تعسر على عارف ولا جاهل . فما من ناس هناك من ناس لا يستكبرون ولا يهيمون بالمال يأكلون آياتنا وحدود الحلال والحرام منه . وبين أناس يتصدون للحاء والخلاء ويأكلون أموال الناس باسطين ويهدون على سواء السبيل ..

• • •

ويكاد لادين كشواى تاريخ العقائد يتفقون على تبويب حطر الحكم المستند على الصمير الإنسانى باقياس إلى حطر العرف أو حطر الخديعة من رؤساء الأديان . لأن احكم مستند ينسبط على الصمير من خارجة ولا يستهويه من باعة كما يستهويه حب السلف أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل رؤساء لادين فهو مشكلة مكان لا مشكلة عقل أو صمير . إما أن يعصيه الإنسان عنه فى مكانه أو يود به منه ممكن أمير . وكثيراً ما يكون الحكم المستند حافراً للصمير إلى المقاومة محرضاً للعقل على الرفض والإنكار . وأكثر ما يجرى منه أن يؤدى إلى تثبت البعاد . لأن هذا التثبت حطر على التكبير كحطر الاستهواء والتسليم . ولا يزل الاستعداد على كى حان قهراً لعقل يعبر إرادته ترك له الأرادة طليقة للمقدمة أو الخيلة أو الخسوع . فهو عبر الانقياد للضلال يثاراً له ومحنة للمصلين

فمن هنا كان حق العقل فى مقاومته - حكم الإسلام - كحقه فى مقاومة سلطان العرب وسلطان الأحبار . ويريد عليه أنه يلوم المسلم على الخسوع فى مكانه إذا كان فى وسعه أن يرحل منه إلى مكان بعيد من سلطانه ..

﴿ قَالُوا مِمَّ كُنتُمْ قَالُوا أَكُنَّا مُتَصَفِّينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ ۚ ﴾

وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا ۚ (سورة الباء)

• • •

ونحن مع العقل في الإسلام حين نذكر أن الإسلام يأمره باستقلال النظر في
موجهة السنن ومواجهه الأحبار ومواجهة الاستبداد . ثم يكون هو الذين لدى
امتار بين الأديان بوصاياه الكثيرة في توفير الآباء والرجوع إلى أهل لذكر وتحجيص
الطاعة لولاة الأمور ..

هذا أمر لعقلاء ههنا بؤمرون . وغير ذلك من الأوامر إلى يكون للآلات التي
تعمل على وتيرة واحدة في أيدي من يحركونها ويدبرونها أو يكون للعلاقات اسكاه
التي تفاد أو تساق ولا رأى لها في مفادة أو مسد

بما يكون أمر لعقلاء أن يؤمروا بالتغيير بين مختلف الأحوال فلا يقال هم بكم
نقصون كل الرقص أو تعملون كل القبول . ولا فرق عندهم بين مرهوس ومرهوس
ولا بين مقبول ومقبول

عسكم أن يدروا بالآباء . ولكن امر معهم غير الصلال معهم عن غير بصيرة .
والعقلاء هم الذين يعرفون موضع هذا وموضع ذلك

وعليكم أن تسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . ولكن أهل الذكر الذين لا
يستفهمون بذكرهم لا ترجى منهم التذكير بغيرهم . ومن لم يكن من أهل الذكر
فليس يصير عنه أن يكون من المسيرين بين الصادقين منهم والمناقضين . وبين سيرة
الرشد والاستقامة وسيرة العوابة والاعوجاج

وعليكم أن تطيعوا ولاة الأمر مكم . ولكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخلق
ولا خير في فئة بصرها المصيان على غير بصيرة . ومن لا تكن له قدره على الخدعة
وم يكن في غصاه أمان من الفتنة الخامة فله في الهجرة مسج يأوى به ما
استطاع .

وهو الأمر كله . بل قوام جميع الأمور في جميع النكالف أن النفس حاسب
على ما تستطيع ولا تؤمر بغير ما تطيق . ومن وراء ذلك تنفع الأمة كلها حين تؤحد
الأمة بوزر الأمة ولا مفرد من كل فرد تنصيره مع مصائر الأمم خدافيرها . فلا ماص

من هذه الوحدة في حساب الأمم . ولا خير للأفراد . مع تفاوت الزمن في عيشة يقف بها خير الفرد وشره عند بابه ولا يحسب فيها حساب شركائه في بيئته فلا تناقص بين أمر الفرد والعقل واشراكه في نعمة الأمر الذي يمر الجميع ولا يخص أحداً من الآحاد . ولكن الأمم تحاطب بتحكيم العقل كما يحاسب به أفرادها متفرقين . ولا تحاسب الأمم إلا على سعة الأمم في أطوار الاجتماع

وصعوبة القبول أن الإسلام لا يعذر العقل الذي يبرح عن حق الإنسان بهمة بالقوة أو استسلاماً للحديفة . ولا حدود لذلك إلا حدود العقاقير البشرية . ونكته الطائفة البشرية عامة كما تقوم بها الأمم . ولا ينهى أمرها عما يكون مفرد من عقاقير لا تعداه .

المنطق

المطلق علم يجمع الأصول والقواعد التي يسماها على تصحيح النظر والتغيير وحكم الإسلام فيه - هذه الثانية - واضح لا يتصور فيه الخلاف . لأن القرآن الكريم صريح في مطابقة الإنسان بالنظر والتغيير ومحاسنه على تعطيل عقله وصلال تفكيره

بما أننا نحتاج إلى التفرقة بين شيئين مختلفين في هذا الموضوع قبل أن نعرض لفتاوى لعقهاء فيه نحرّم أو نحليل . وهما المطلق والحدود أو الخطاطب الإقناعي . لأنها ليحتلما وتباعدن حتى ينهى الاختلاف والتناهد هما إلى الطرفين النقيضين ..

فالمطلق بحث عن الحقيقة من طريق النظر لمستقيم والتغيير الصحيح .

واحد بحث عن العنة والإلزام بالحجة . قد يرمى إلى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة . وقد يتحرى مجرد المساقفة للقول على الخصم وإحكامه في محل المناقضة والملاحج .

وقد ظهر المطلق والحدود بين اليونان الأقدمين فأكثروا المطلق ويطروا إلى الحدود بطريقة اشتباه وإنكار ، وهو الذي سموه - بعد - بالسمسطة أو ترفقوا فسموه علم إبراهيم الخطابية Rhetotic وحسبوه صناعة لازمة في معرض الإقناع ولتأثير

وكان اسم « السمسطة » في شأنه الأولى معطفاً محللاً بين الحكماء وتلاميذهم وجمهرة المعيين بالحكمة والمعرفة . وكان اسم « السوفيست » أعظم شذناً من اسم ألبسوف .. لأن السوفيست ينتمي إلى ربة الحكمة وصوفيته فهو الحكيم الذي أهمته تلك الربة وخرج من مؤنة المعرفة فلما ظهر الحكيم « فيثاغوراس » استكثر هذه الدعوى وتوضع صمى همه فيلسوفاً أي محباً للحكمة يطلبها ولا يرغم أنه وصل إليها . ثم نجم بعد قرن من عصر فيثاغوراس ناحم من فئة الحدودقة باسم الحكمة يقودها بروتاغوراس Protagoras الأنديري فراح تتحدى من ينكر عليه العلم أن يسأله فيما

بشاء . وهو كميل بالإحانة عليه بلا وقاء . وعدل عن اسم المحسوف الذى يقع
 محبة الحكمة إلى اسم «السوفيست» مرة أخرى لزعمة أنه ملك الحكمة واستوفاهما .
 وعشت كلمة «السفسطة» من هنا على كل من يدعى هذه الدعوى ويتحدث بهذه
 المخلقة . وكثر الاشتغال بالرهان فى المنازعات القضائية والمناقشات السبسية
 ففصلت الصناعات بانفاق المعلمين والمتعلمين . وصرح أصحاب كل صناعة
 يريد من عملهم وتعليمهم وأصبح من المفهوم المتأهم عليه أن «تنتق حث عن
 الحقيقة وأن أخذ بحث عن المصلحة أو الرعة المتأرج عليها . وتصدى لتعليم الحدل
 أو الرهن الخطاىة أناس بقصدتهم المتعلمون ليعرفوا كيف يتصرفون على خصوصهم
 فى مجال المنازعة والملاحاة وبصع الآماء أناءهم فى كمالهم ليدرؤهم على صناعة
 لتدصوى والتأثير فى سبيل الإقناع بالحجة أنا كان حظهم من الحقيقة .

ومى يحكى عن أستاذ مسطأ أن اتفق مع تلميذ له على أن يجره تدافع فى
 القضاء والمنازعات العامة خلال عشرين بأجر متفق عليه . فلما انتهى العادان طلب
 الأستاذ أجره وقال للتلميذ : بل أناقشك فى هذا الآخر هل تستحقه بمسك أو تطلبه
 بعبرحق . فإن أقعتك بأنك لا تستحقه فلا حق لك فيه بأعزائك وسكونك حجة
 عن هذا الاعتراف . وإن لم أقعتك فلا حق لك فيه لأنك لم تعلمى كيف أقيم
 البرهان على دهوى .

وكان حوار الأستاذ - كمال تلميذه - مثلاً للرهان المطلوب فى هذه
 لصناعة فقال له : إنى أقل أن أناقشك ولكنى على غير النتيجة التى حصلت
 ليها . أناقشك فى حتى فتعطيه مرة إذا نيت عليك وتعطيه مرتين إذا لم أنته «ملك
 لأننى علمت تلميذاً ما يطلب به أستاذه فى صناعة الرهان . مع اتفاقها أولاً على
 الحق الذى يتنازعانه فى النهاية ..

وسع من التأهم على الفصل بين البرهان والحقيقة فى صناعة الحدل أنهم
 أصبحوا يقولون عن الحجة إنها حجة خطاىية أى تقع ولا يشترط فيها أن تدل على
 الحقيقة ، ويقولون عن السؤال أنه سؤال خطاىى أى لا يرد منه جواب معلوم عن
 توحيه السؤال كقول الخطيب للسامعين فى معرض الرجز والاستشارة : هل أنم

وطوبى ٢ هل أتم سامعون ٢ إلى أمثال هذه الأسئلة التى يسألها المتكلم بيؤثر بها على مستمعيه لا لأنه يتطرق للجواب عليها ..

وشرح أهل هذه الصناعة بأن السؤال الخطأ قد ينقص الحقيقة .د ورد في صيغة الخطاب دون أن يريد فيها حرفاً أو كلمة . ومن أمثلهم من ذلك أن محرمًا نصي عليه أن يقف في جمع حائل ويشهد على نفسه بالسرقة فينادى فيهم أَل محرم .. ويكررها ثلاث مرات ..

فما وقف في جمع الحائل نادى كما أمروه ولكن بصيغة الخطاب . فطفق يقول كأنه يستعهم ويستكر أيها الناس أأ محرم ٢ أأ محرم أيها الناس ؟ فكان في صيغة السؤال الخطأية إنكار للاعتراف الذى أرادوه عليه . دون أن يريد حرفاً أو كلمة في عبارة الاعتراف ..

هذه الصناعة - صناعة الحد - ليست في شيء من المنطق المقوم المطلوب للبحث عن الحقيقة . ولكنها صناعة يتعلمها طالبها وهو عالم أنه يشد ائمة عن خصومه في المناقشة بالحق أو الباطل . فان لم يتعلمها عامداً هذا الهمد فقد يساق إليها بطبيعة الحد وشهوة المعابة فيؤثر المعاملة على المصارحة ويصر على المكابرة بجهلة بالحقيقة أو مكابرة فيها ..

وما من أمة تتع فيها باب الحد وعليت فيها شهواته ثم سلمت من جزائرها . سواء كانت هذه الآفة مما ينجم عن تعليم الصناعة أو كانت مما تحفه اللجاجة والنادى في الملاحاة والمصاء ..

وقد صرب المثل بالحد «البريطى» في طول اللجاجة وسوء العاقبة وقمة الحدوى بطلاب الحقيقة والصلاح . ولكن البريطين لم يكونوا بدعاً في هذه الآفة وم ينفردوا بالحد على غير طائل كلما تحتج أبوابه على مصطلحات المطلق أو على غير مصطلح مفهوم غير اللدد والحد ، فإن بنى امراثيل قد سبقوا البريطين إلى أمثال هذه شاذلات لحاوية إلا من الباطل والشحناء ، وحاء السيد المسيح إليهم فوجد بهم طائفة الكسة والمريسين لا عمل لها غير احتلاق الخيل والشرائك لاقتصاص الناس

معاملات الأباط والأعيان الخلقية والخرق وكأن تلك الآفة صرعاها بعد
البريطانيين كما كان لها صرعاها قبلهم بين يدي إسرائيل . فكانت آفة الخذل على أناة
انقرون الوسطى من المشتغلين بالفلسفة والمنطق أو بالتصويرات الأدبية والمهارات
المدنية أشد عليهم من آفة الخذل والحمود على التقاليد

ويؤخذ من أحجار الأمم التي امتنعت بالمنازعات الخلقية أن هذه الآفة مرض
احتجاعي تشبه أعراضه في الأمم ولا تحصر في اليونان أو يدي إسرائيل . فلا يزال
الخدل حيث كان مقترناً بأعراضه الويلة . وأشهرها وأوسعها ثلاثة وهي إغراء
السبب بالحقبة بالقصور دون الجوهر واللب من حقائق الأمور . وإثارة للعصاة
وتشجيعه على غير طائل ولما بالعنة والامتلاء بدعوى العلم والصواب . وإشاعة
الخلاف بين الآراء جماعة بعد جماعة إلى غير نهاية يقف عندها ذلك الخلاف . فتقسم
الأمم إلى شيع وتقسم لشعبة إلى عرق . وتقسم العرق إلى شعب وفروع حتى لا تبقى
فئة واحدة على رأي واحد وإن قلت في العدد وصغرت في مرة التفكير

ولا تنقلت هذه الآفة إلى الأمم الإسلامية فثبت فيها هذه الأعراض جميعاً ولمس
الخاصة والعامة أضرارها في نبات العلم والدين . وتشاهد بها المسلمون أشد من
تشاؤم اليونان بالمسيحيين والمسيحيين الأولي بالكنيسة والعيسيين لأن معادلات
الفسلفة والتأويل بحمت في اليونان وبين إسرائيل من بين أنفسهم ولم تنتقل إليهم
من الأحزاب العراء عنهم . أما فئة الخذل ومصطلحاته الكلامية فقد انتقلت إلى
مسلمين من أم عربية على أبدي الراحة المخلاء فخرسب إلى الأذهان شبات
كثيرة من أمرها ووهم بعض الخلاصة - فصلاً عن العامة - إنها مكيفة مهيئة للأمة
الإسلامية توطئاً عليها أعداؤها من خارجها ودخلها ، وتداولت الألسنة قصصاً عن
نقل هذه العلوم الدخيلة تشبه الأساطير ووادع الرواة والتحليل . ومن أشنع هذه
الشواغل المترددة ما روه جلال الدين السيوطي عن الشيخ نصر لمقدسي من كتابه
والحقبة في ترك المحصنة حيث يقول : إن بين العباس قامت دولتهم على الفرس
وكانت الرياسة فيهم وفي قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والعصاة للعرب ودوده

الإسلام ، فأحدثوا في الإسلام الحوادث التي تؤدي بهلاك الإسلام وبولاء أن الله
سرك وتعالى وعد سيه صلى الله عليه وسلم أن ملته وأهلها هم الظاهرون ليوم القيمة
لأعطوا للإسلام . ولكنهم قد ثلموه وعوروا أركانه والله يسخر وعده إن شاء الله ٥

ثم يقول ٥ فأول الحوادث التي أحدثوها بإخراج كتب اليونانية إلى أرض
لإسلام فترجمت بالعربية وشاعت في أيدي المسلمين . وسب حروجهما من أرض
الروم إلى بلاد الإسلام يحيى بن خالد بن برمك . وذلك إن كتب اليونانية كانت سد
الروم وكان ملك الروم حاف على الروم أن يظفروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين
النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية وتشتت كلماتهم وتترق حياضهم . فجمع
الكتب في موضع وبني عليها بناء عظيماً بالحجر والخشب حتى لا يوصل إليها . فلما
أعصت رياصة بني العباس إلى يحيى ابن خالد . وكان رديقاً . بلغه خبر الكتب التي
في البناء سد لروم فصاع ملك الروم الذي كان في وقته يهدايا ولا يلتبس منه
حاجة . فلما أكثر عليه جميع الملك بطارفته وقال لهم إن هذا الرجل حادم العرب أكثر
على من هداياه ولا يطلب مني حاجة وما أراه إلا يتنفس حاجة وأحاف أن تكون
حاجته تشق على فلما جاءه رسول يحيى قال له قل لصاحبك إن كانت له حاجة
فيديكرها فلما أخبر الرسول يحيى رده إليه وقال له حاجتي الكتب التي تحت لسانه
يرسلها إلي . أخرج منها بعض ما أحتاج إليه وأرده إليه فلما قرأ الرومي كتابه
استطرد مرحاً وجمع البطارقة والأساقفة والرهان وقال لهم قد كنت ذكرت لكم
عن حادم العرب أنه لا يخلو عن حاجة وقد أفصح بحاجته وهي أحف الحوائج عن
وقد رأيت رأياً فاسمعه وإن رصيتموه أمصته . وإن رأيتم حلافة تشاوروا في ذلك
حتى تتفق كلمتنا فقالوا وما هو ؟ قال حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما
يحب ويردها فقالوا فما رأيك ؟ قال قد علمت أنه ما بني عليها من كان قد
إلا أنه حاف إن وقعت في أيدي النصارى وقرأوها كانت سباً لهلاك دينهم وتبديد
حماضهم ، وأنا أرى أن أبعث بها إليه وأسأله ألا يردها . يتلون بها ويسلم عن من
شره فلما لا آمن أن يكون بعدى من يجترئ على إحراجها إلى الناس فيقعو بها
حيف عديم . فقالوا نعم الرأي رأيت أيها الملك فأمصه ٥

وهذه قصة تصح في التاريخ أو لا تصح فلا شبهة على الخالين في سوء الأثر الذي أصبحت به الأمة الإسلامية من آفة الخذل باسم المطلق للزيف . فإنها أشبه شيء بسقمة التي يصيبها العدو على عدوه أو المكيبة التي يسبها عليه ليشعله بالشقاق والشتات عن مهام دياه ومطالب ديه . وهذه المحنة هي التي أرادها من أرادها بالحضر والتحرر من عماء المسلمين . هموا الاشتغال بالخلل مدأ للتراث واتقاء لفترقة التي تبيل الأدهان وتفسد القلوب وتجري إلى هذه المشكلات أهل الفصول والطبقة فيوثقون معهم طوائف الأبرياء من أهل الخذل والاستقامة ليس لا طاقة لهم بالمنطق ولا بالجدال ..

وكان دخول مصطلحات اليونان على أيدي أناس يجهلون العربية ويعجزون عن فهم ألفاظ القرآن ومعانيه بآناً آخر من أبواب الخلط والملط في تطبيق اللفظ والقياس ..

لم كان من أصحاب المطلق أهلاً لفهمه ومعرفة وجوهه لم يكن أهلاً لتطبيقها على معاني القرآن وعباراته لجهله بلذوق اللغة وأسرار بلاغتها . ومن كان يعرف اللغة لم يكن من ذوي المعرفة بالبرهان والقياس ، وشر من هؤلاء من يجهلون اللغة كما يجهلون المنطق ثم يهرقون بما لا يعرفون في شئون ترتبط بها سلامة المجتمع وطمأنية المواطن . وشر من هؤلاء أحمق من يعرفون اللغة والمنطق ويسبئون الية عمداً لإزعاج المواطن المطمئنة وتقويض المجتمع السليم ..

وكن ما ورد عن علماء الإسلام الذين حرموا الخذل فلما يصرف إلى مع هذه الناحجة لقي لمسوا شرورها وتحققوا من حريرتها ولم يلبسوا معها منعة تتحقق بالخلل ولا تتحقق بعيره . ما يعبرقوناً من الأقوام خطب أضح عليهم من اشتغالهم بالخلل وتركهم العمل كما قال الإمام الأوراعي ، وأسم المواقف عند دوى البصر بالدين إذا احتدم الخصام وشاع المراء والانتقام أن بصباء المرء ولا يصيب وأن يتحجب الخصومة أو يتحجب فيها كل قول مريب . وجماع ذلك شعر حسن سناقلوبه عن مصعب بن عبد الله الزبيري المتوفى قبيل منتصف القرن الثالث يقول فيه

ألقعد بعد م رحعت عظامي
أحاصم كل معترض حصيم
فأنرك ما علمت رأى عبرى
وب أنا وخصومة وهى ليس
وقد سنت لنا سنن قوام
وكان الحق ليس به خفاء
وما عوض لنا مهاج «جهنم»
فأما ما علمت فقد كفاى
فلسك بمكر أحداً بصلى
وك أحوة نرمى جميعا
فأوشك أن يجر عباد بيت
وكان الموت أقرب ما يلى
وأحل دبه عرصاً لى
وليس الرأى كاعنم اليقين
تصرف فى الشال وى يمين
ياحن بكل فج أو دحين
أخر كخرة القلق اسين
يحتاج ابن آمنة لأمين
وأما ما جهلت فحيون
وم أجركم أن نكرونى
قضى كل مراتب صين
ويقطع القرن عن القرن

وعى كثرة الفقهاء الذين عرصوا لهذا الموضوع لا نجد واحداً منهم قصد بالغ أو التحريم شيئاً غير هذا الجدل العقيم الذى يترك وحدة الجماعة ويصرف الفكر عن الفهم ويأتى إلى المعنى الواضح فيعتمده ولا يتعمق له يوماً أن يأتى إلى الدمع فيجوده ويقره من حق عليه فهم فى الواقع إما ينفذون العقل من صلالة تعشاء فتعجب عنه الحقيقة ، ويعيدوه أن يحيط فى النهار المين خط عشواء ..

وأكرم الفقهاء الذين أفاضوا فى بحث هذه المسألة ثلاثة من الأئمة المحققين هم العزالى ، وابن تيمية ، وجلال الدين السيوطى . وآخرهم جلال الدين يتبع للإمامين السابقين ويقتدى بهما فى علوم الرياضة والفلسفة ، ويقول عن نفسه إنه ليس من أهل هذه العلوم كما قال فى كتابه حسن المحاضرة « وأد علم الحساب فهو أعسر شئ عى وأمد عن ذهنى وإذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأى جلا أحمله

وإذا أحيل البحث إلى الإمامين العزالى ، وابن تيمية ، فمن بين بنى حجتي من حجج انطق لا يسعها فيه سابق من المتقدمين أو المتأخرين ، ومناقشتها

للمنطق مناقشة تصحيح وتنقيح وليست مناقشة هدم للأسس التي يقوم عليها أو
تفيد للأصول التي يرجع إليها . فما يريدان إثبات الخطأ على من يسيئون تطبيق
القياس والبرهان ولا يريدان هو القياس والبرهان في علم من علوم الدين أو الدنيا التي
جاءت من اليونان أو نشأت بين المسلمين ..

فالمراي في مفتتح الجزء الأول من كتابه «المستصفي» يذكر من شروط العلم
للمتقدم غير المتقدم أن يحيط بعلم النظر ويحسن إيراد البرهان وإجراء القياس ، وكان
يعني على العلماء أنهم لا يشتغلون بتحصيل هذا العلم فقال من كلامه عن أحاصيل
الفلسفة في كتابه المقدم من اتصال «إلى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم
الفلسفة وعلمت بيقين أنه لا يقف على عباد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى
ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يريد عليه ويجاوز درجته فيطلع على
ما لم يطلع عليه صاحب العلم من عور وعائلة ، فإذا ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه
من صده حقاً ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف همه وعنايته إلى ذلك ، ولم
يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة
مبهدة ظاهرة التناقض والعبث لا يظن الاعتراض بها يغال في فصلها عن يدعي
حقائق العلوم . علمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في حماة .
فتمرت عن ساق الجرد في تحصيل ذلك العلم بمجرد المطالعة من غير ستعة بأستاذ
ومعلم وأقننت عن ذلك في أوقات فراغي من التدريس » .

وبعد دراسة المنطق رأى المراي أن خطأ المناطقة إنما يعترهم من ناحية التطبيق ،
ولا عيب في أصول النظر على استقامة فهمها وصدق الرعة في المعرفة الصحيحة
ومن ذلك قوله في كتاب مقاصد الفلاسفة : « أما المظنيات فأكثرها على مروج
الصواب ، والخطأ نادر فيها وإنما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والإيرادات
دون المعاني والمقاصد » ..

ومن كلامه في فائحة كتاب محك النظر : « إنك إن اتقمت شروط القياس
الصحيح والحد الصحيح والتنبيه على منارات العلط فيها وقتت للجمع بين الأمرين
فيها رباط العلوم كلها » ..

ويقول في حاتم كتابه الميزان : « لو لم يكن في محاربي هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للقلب وباهيك به نعماً إذ الشكوك هي الموصنة للحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال نعود بالله من ذلك .. »

وهو في جميع كتبه يحرم التقليد على من يستطيع الدرس والاهتداء بالتصكير السليم إلى حقائق الدين وسيرته ، كما روى عن نفسه مثل لما ينبغي لطالب المعرفة أن يتحرره من البحث عن الحقيقة أينما وجدها أو فاده السعي إليها . قال في مقدمة استفاد من الضلال : « ولم أزل في عنوان شأني منذ راهمت الطلوع قبل بلوغ العشرين إلى الآن - وقد أذاب الس على الخمسين - اقتحم لحة هذا السحر العميق وأحوص غمرته حوص الحصور لا حوص الحبان الحذور ، وأتوغل في كل مظنة وأنهم على كل مشككة وأقتحم كل وزلة وأنفحص عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق وبطل ، ومنسني ومبتدع ، لا أعادر باطلاً إلا وأحب أن أطلع على بطلانه ولا ظاهراً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفاً إلا وأقصم الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومحدته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صمونه ولا متعبداً إلا وأرصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زديقاً متعطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعصيه وريدته . وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور : دأى ودينني من أول أمري وديعان عمري عريرة وهطرة من الله تعالى

فالنقل عند الإمام العراقي هو العقل في شرعة الإسلام ، كلامه عقل يتبنى الحقيقة حيث كانت ولا يجمع من المعرفة حيث أصابها ولا يقم فوقه أو بين يديه باباً مطلقاً دون قبس من النور يريه ما لم يكن رآه أو يزيده بصيرة بما رآه . وإنما تناول بالتحريم عملاً ليس من أعمال العقل ولا هو مما نسيه العقول الرشيدة ، وهو تعريض العامي المعقد للمشكلات التي لا يدركها ولا يتوهم على درسها وإدراكها ، وكل ما يجنيه من عرضه لما أن يسلبه طمأنينة التقليد ولا يعوصه بها غير الفلق والاضطراب وسوء الطوية . وليس في ابتلاء العامي المقلد هذه المنة شيء من النقل ولا في توجيه مهيئتها . ورنال عقابها مخالفة للعقل أو حجر عليه ..

ويبحثى الغزالي فتنة الجدل على الأثرية المتحذلقين كما يحشدها على العامة
 بالمقلدين . فهم كالعامة المقلدين أو شر منهم في مصابهم بخضار الجدل وعجزهم عن
 الاستمادة من حوص مرافقه وعوياته . قال في الجزء الأول من الأحيان : « وأما
 المبتدع بعد أن تعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقل ما ينفع معه الكلام وقدر عنه
 جواباً عنه . فلذلك إن أفعته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقد رأت عد
 غيره جواب ما هو عاجز عنه ، وإنما أنت مجلس قوة المجادلة . وأما العامى إذا صرف
 عن الحق بوع جدل فيمكن أن يرد إليه غلته قل أن يشتد التعصب للأهواء . فإذا
 اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم »

وموقف الإمام ابن تيمية من المنطق والجدل شيه بموقف الإمام الغزالي ، ولكنه
 يرى أن المنطق سابقة في العقل الإنسانى يستغنى عنه الذكى ولا يستمع به البليد رد
 جاء على غير سابقة واستعداد . ومن كان هذا رأيه في المنطق فعليه أن يقال عنه إنه
 يلفيه ويحرمه لأنه لا يلغى القطرة ولا يحرم تركياً أودعه الله نفوس خلقه ، ومن نظرى
 كتب ابن تيمية التى ناقص ما أدهياه المنطق وعشاق الجدل علم أنه كان يصدد إنشاء
 منطق صحيح وهداية إلى تطبيق أصول المنطق القويم ، ولم يكن متصدياً لخدم المنطق
 من أساسه على جميع وجوهه وفى جميع تطبيقاته . فهو يستخدم قضايا المنطق ليبتل
 دعوى الماتقة الذين يضحون الحدود فى غير مواضعها ويقضون الأشياء والقائلين
 بغير قياسها ويهدرون الحقائق فى سبيل المصطلحات والألفاظ بغير دراية لمعناها . ومن
 تحطته لهم فى فهم «الحد» تبين إنه لا يبطل الحد ولكنه يبطل قول القائلين إن التصور
 موقوف عليه ، وكلامه عن الحد مثل لكلامه فى القياس والقضية وسائر المصطلحات
 المنطقية ، وفيه يقول كما خصه السيوطى من كتاب «نصيحة أهل الإيمان فى الرد على
 منطق اليونان» .

« قولهم إن التصور لا ينال إلا بالحد الكلام عليه من وجوه ..

« لا ريب إن الناقى عليه الدليل كالتفت ، والقضية سلبية أو إيجابية إذا لم تكن
 بديهية لا بد لها من دليل . وأما السلب بلا علم فهو قول بلا علم . فتوهم لا تحصل
 التصورات إلا بالحد قضية ساللة وليست بديهية . من أين لهم ذلك ؟ وإذا كان هذا

قولاً بلا علم وهو أول ما أسسوه فكيف القول بلا علم أساساً ليران العلم ولما يرمعون
إنها آلة قانونية تعصم مراعاتها الدهى عن أن يزل في فكره

« الثاني » أن يقال الحد يراد به نفس المخلود وليس مرادهم هنا ، ويراد به
القوى لدال على ماهية المخلود وهو مرادهم هنا ، وهو تفصيل عليه الاسم
بالإيجال - - يقال إذا كان الحد قول المخاد فالمخاد إما أن يكون عرف المخلود حد أو
بغير حد فإن كان الأول فالمكلام في الحد الثاني كالمكلام في الأول وهو مستلزم
للدور أو التسلسل ، وإن كان الثاني بطل سلبيهم ، وهو قولهم إنه لا يعرف إلا بالحد

« الثالث » إن الأئمة جميعهم من أهل العلوم والمقالات ، وأهل الأعمال
والصناعات يعرفون الأمور التي يحتاجون إلى معرفتها ويحققون ما يعاينونه من العلوم
والأعمال من غير تكلم بحد ولا بحد أحد من أئمة العلوم بتكلم بهذه الحدود ، لا أئمة
الفقه ولا لحد ولا الطب ولا الحساب ولا أهل الصناعات ، مع أنهم يتصورون
مفردات علمهم . فعلم استثناء التصور عن هذه الحدود

« الرابع » إلى الساعة لا يعلم الناس حد مستقيم على أصلهم . بل أظهر الأشياء -
وحده بالحيون الناطق - فيه الاعتراضات المشهورة ، وكذا حد الشمس وأمثاله .
حتى إن النحاة لما دخل متأخروهم في الحدود ذكروا للاسم بصفة وعشرين حداً
وكدها معترضة على أصلهم . والأصوليون ذكروا للقياس بضمة وعشرين حداً وكلها
أيضاً معترضة ، وعامة الحدود المذكورة في كتب الملاسفة والأطباء والحياة وأهل
الأصول والكلام معترضة لم يسلم بها إلا القليل . فلو كان تصور الأشياء موقوفاً على
الحدود ولم يكن إلى الساعة قد تصور الناس شيئاً من هذه الأمور ، والتصديق
موقوف على التصور ، فإذا لم يحصل تصور لم يحصل تصديق فلا يكون عند من
آدم علم من عامة علومهم وهذا من أعظم السمسة .

« الخامس » أن تصور الحاجة إنما يحصل عندهم بالحد الحقيقي المؤلف من
الذاتيات المشتركة والمميزة ، وهو المركب من الجنس والفصل ، وهذا الحد إما متعبر
أو متعبر كما قد أفروا بذلك ، وحيث فلا يكون قد تصور حقيقة من الحقائق دائماً أو
غالباً . وقد تصورت الحقائق فعلم استثناء التصور عن الحد

«السادس» إن الحدود عندهم إما تكون للحقائق المركبة ، وهي الأنواع التي لها
 حس وفعل فأما ما لا تركيب فيه وهو ما لا يدخل مع غيره تحت حس كما مثله
 بعضهم بالعقل - فليس له حد ، وقد عروه وهو من التصورات المطلوبة عندهم
 فعلم استعناء التصور عن الحد . بل إذا أمكن معرفة هذا بلا حد فمعرفة تلك الأنواع
 أول ، لأنها أقرب إلى الحس ، وأشخاصها مشهورة . وهم يقولون إن التصديق لا
 يتوقف عن التصور التام الذي يحصل بالحد الحقيقي بل يكفي فيه أدنى تصور ولو
 بالخاصة ، وتصور العقل من هذا الباب ، وهذا اعتراف منهم بأن جنس التصور لا
 يتوقف على الحد الحقيقي ..

«السابع» إن سامع الحد ، إن لم يكن عارفاً قبل ذلك بمفردات ألفاظه ودلالاتها
 على معانيها المفردة لم يمكنه فهم الكلام ، والعالم بأن اللفظ دال على المعنى الموضوع له
 مسبوق بتصوير المعنى ، وإن كان متصوراً لمسئى اللفظ ومعناه قبل سماعه امتنع أن
 يقال إنما تصوره بسماعه ..

«الثامن» إذا كان الحد قول الخاطو لمعلوم أن تصور المعاني لا يقتصر إلى الألفاظ
 فإن المتكلم قد تصور ما يقوله بدون لفظ ، والمستمع يمكنه ذلك من غير مخاطب
 بالكتابة ، فكيف يقال : لا تصور المفردات إلا بالحد .

«التاسع» إن الموجودات المتصورة إما أن يتصورها الإنسان بحواسه الظاهرة
 كالطعم واللون والريح والأجسام التي تحمل هذه الصفات ، أو بالباطنة كالحس
 والحب والبغض والفرح والحزن واللذة والألم والإرادة والكراهة وأمثال
 ذلك ، وكلها غنية عن الحد ..

«العاشر» إنهم يقولون : للمعتصر أن يطمى على الحد بالتخص في الطرد أو في
 الجمع ، وبالمعارضة بعد آخر ، فإذا كان المستمع للحد يطله بالتفرض تارة وبالمعارضة
 تارة أخرى - ومعلوم أن كليهما لا يمكن إلا بعد تصور الحدود - عم أنه يمكن تصور
 الحدود بدون الحد ، وهو المطلوب ..

«الحادي عشر» إنهم معترفون بأن من التصورات ما يكون بدنياً لا يحتاج إلى
 ٣٧

حد ، وحيث يقال : كون العلم بديهاً أو نظرياً من الأمور السيئة الإصابت ، فقد يكون انطوى عند رجل بديهي عند غيره لوصوله إليه بأسانه من مشاهدة أو تواتر أو قرئ ، والناس يتفاوتون في الإدراك تفاوتاً لا يضبط فقد يصير البديهي عند حد دون ذلك بديهاً لذلك أيضاً مثل الأسباب التي حصلت لهذا ولا يحتاج إلى حد

• • •

ثم ينتقل الإمام إلى تعريف الحد فيقول : المحققون من النظر على أن الحد قائده المميز بين المحدود وغيره ، فالأهم ليس قائده تصوير المحدود وتعريف حقيقته ، وإدعى هذا أهل المنطق اليونانيون أتباع أرسطو ومن سلك مسيلهم تقيداً هم من الإسلاميين وغيرهم فأما جماهير أهل النظر والكلام من المسلمين وغيرهم فعل خلاف هذا وإنما أدخل هذا من تكلم في أصول الدين والفقه بعد أبي حامد في أواخر اداة الخامسة ، وهم الذين تكلّموا في المحدود بطريقة أهل المنطق اليوناني ، وأما سائر النظائر - من جميع الطوائف الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وغيرهم - فعندهم إنما يفيد الحد التمييز بين المحدود وغيره وذلك مشهور في كتب أبي الحسن لأشعري والقاضي أبي بكر وأبي اسحق وابن هونك والقاضي أبي يحيى وابن عثيل وروام الحرمين والنسفي وأبي حل وأبي هاشم وعبد الحار والطوشي ومحمد بن أبيهم وغيرهم . ثم إن ما ذكره أهل المنطق من صناعة الحد لا ريب إسم وصحوا وصحاً ، وقد كانت الأمم قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوصف ، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وصفهم ، وهم إذا تدبروا وجدوا أنفسهم يسمون حقائق الأشياء بدون هذه الصناعة الوضعية ..

• • •

فهذا وما جرى مجراه من كلام الإمام ابن تيمية تصحيح للمنطق وتحرير للعقل من قيود المصطلحات التي تعوقه عن النظر السليم ولا تطلقه على موائمه ، ووجهته أن المنطق مقيد بالعقل وليس العقل مقيداً بالمنطق كما جملة المقلدون من عبد الألفاظ وأصحاب اللجاجة بالمصطلحات الموصوعة ومن إحاطة هذا الإمام الثابت يقنون البحث أنه يستقصيه إثباتاً ونفيّاً في كل باب من أبوابه وعلى كل منهج من منهجه

سواء منها ما شاع في عصره وما يدر في ذلك العصر وشاع في الزمن الأخير حتى حسبه بعضهم من مخترعات العصر الحديث كالاستقراء الذي يشبه الإحصاء والمقارنة بالأرقام ولقنادير . فمن حججه على أدعاء المنطق وأصحاب الحدل مشاهدات لواقع وإحصاءاته المحسوسة التي أثبتت أنه قلة جدوى المصطلحات المطبقة في فهم والتدعيم والتوفيق بين الآراء وتقريب العقول من الإقناع والافتتاح . قال في كتابه نقض المنطق - « إنك تجدهم أعظم الناس شكاً واضطراباً وأضعف الناس علماً و يقيناً ، وهذا أمر يجدر به في أنفسهم ويشهد له الناس منهم ، وشاهد ذلك أعظم من أن تذكرها . وإنما فضيلة أحدهم ناقدته على الاعتراض والقدرح والحدل . ومن المعلوم أن الاعتراض والقدرح ليس يعلم ولا فيه منفعة ، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون متمتة العامي ، وإنما العلم في جواب السؤال ، ولهذا تجد عالم حججهم تنكفاً إذ كل منهم بقدرح في أدلة الآخر . وقد قيل إن الأشعري - مع أنه من أقربهم إلى السنة والحديث وأعلمهم بذلك - صنف في آخر عمره كتاباً في تنكاف الأدلة يعني أدلة علم الكلام . فإن ذلك هو صناعته التي يحسن الكلام فيها . وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى في طريقهم ، كما ذكرناه عن أبي حامد وغيره ، حتى قال أبو حامد الغزالي (أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام) وهذا أبو عبد الله الرازي من أعظم الناس في هذا الباب - باب الحيرة والشك والاضطراب - لكن هو مسرف في هذا الباب بحيث أنه [يشتبه] في التشكيك دون التحقيق بخلاف غيره . وهو يحقق شيئاً ويثبت على نوع من الحق . لكن يمتص الناس قد يشت على باطل محض بل لا بد فيه من نوع من الحق . وكان من صلاء المتأخرين وأبرعهم في النسخة والكلام ابن واصل الحموي كان يقول : أستلقي على قضاي وأصعب المسحة على صدف وجهي ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى مطيع الفجر ، ولم يترجع عندي شيء . ولهذا أنشد الخطابي :

حجج تهاوت كالزجاج فخالها حلاً وكل كاسر مكسور

فإذا كانت هذه حال حججهم فأي لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا ؟
ثم استورد من هذا قائل ما ضواه إن الخلاف يقل كلما قل المنطق ويكثر

ويشتد كلها كثرت مناقشاته واشتدت منازعاته ، وبالجملة فالكلمات والاستقرار في أهل الحديث والنسبة أصعاف أصعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة ، بل شتمت فلسفة أعظم اصطراباً وحيرة في أمره من المتكلم من الحق الذي تلقاه عن الأنبياء ما ليس عند المتكلمين ، ولهذا نجد مثل أبي الحسن البصري وأمثاله أثبت من مثل ابن سينا وأمثاله . وأيضاً نجد أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس اقترافاً واختلافاً مع دعوى كل منهم إن الذي يقوله حق مقطوع به قام عليه الرهان وأهل السنة وسحديث أعظم الناس إتفاقاً واتساقاً ، وكل من كان من الطوائف إليهم أقرب كان إلى الإتفاق والاتساق أقرب فالمعتزلة أكثر إتفاقاً واتساقاً من المتكلمة ، إذ للفلاسفة في الإلهيات والمعاد والنسب ، بل وفي الطبيعيات والرياضيات وصفات الأفلاك - من الأقواس مالا يحصى إلا ذو الحلال . وقد ذكر في جميع مقالات الأوائل مثل أبي الحسن الأشعري في كتاب المقالات ، ومثل القاضي أبي بكر في كتاب الدقائق من مقالاتهم ما يذكره الفارابي وابن سينا وأمثالهما أصعافاً مضاعفة .

وأهل الإثبات من المتكلمين مثل الكلاية والكرامية والأشعرية أكثر إتفاقاً واتساقاً من المعتزلة . فإن في المعتزلة من الاختلاف وتكثير بعضهم بعضاً حتى يكفر تنميد أستاذه من جسم ما بين الخوارج . وقد ذكر من صف في فصائح المعتزلة من ذلك ما يطول وصفه . علمت نجد اتفاقاً واتساقاً إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث وما يتبع ذلك ، ولا نجد اقترافاً واختلافاً إلا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه .

وقد سلك ابن تيمية هذا المسلك في مواضع كثيرة من رسائله وكتبه التي أدارها حتى مناقضة الحدادين والمناطقية التشييشي بالمصطلحات والتعريفات العقلية ، فلا يسع منصفاً أن يظن به أنه يحرم الحجة والبرهان وهذه حججه وبراهينه تعتمد على الدليل والقرينة والاستقراء والمشاهدة وكل ما تنتظم به قضايا المنطق ودعاؤه ، وعاية ما يقوله المصنف إن التحريم عنده مقصود به اللغو والجدل والولع بالفسوسة على غير جدوى ، وإنه تحكيم للعقل في المنطق إتقاداً له من تحكيم المنطق فيه ، ولا يكون المنطق متحكماً في العقل صارفاً له عن النظر القويم إلا إذا علمت فيه أشكال

للمعنى والصيغة على حقائق المعنى وجواهره فهو هذه المثانة رقيقة للقول يسمى
للمفكرين أن يظفوها من شاكرها ليستقيموا بها على سواها

وما كان اس تيمية بالذى يظن به أنه يعادى المنطق لأنه يجهله ويستحلف به
مداراة لجزءه عنه . فإن معرفته به ظاهرة في معارض قوله كأنه من رمة المتخصصين
به والمتعمرين لدراسته وحديق أساليبه . ومثل هذا لا يتصدى للمنطق إلا أن يكون
فيه ما يحشى صرره على الناس . ولا سيما المشتغلين به من غير أهله .

وقد تصدى للمحافظة الخليلي هذا الإمام الجليلان أبو حامد الغزالي وابن
تيمية - وكلاهما بلقب بحجة الإسلام وبذل تلقية هذا التلق على المكانة التي
ستحقها بين المسلمين بالقدرة على الاحتجاج وإقامة الدليل . فليس من شأن
علماء الإسلام ولا من شأن المسلمين الذين يخلوهم ويقتلهم هم ويستمعون إليهم
أن تسقط عنهم الحجة ويطلق عليهم الإفتاع . وما خسر من المنطق شيئاً من
حاصلته به الحجة القائمة . فإن إقامة الحجة هي المنطق السليم في جوهره الصحيح
منطقاً من هوائك الأشكال والعناوين ..

ولا يحى أن المسلمين عقيدة واحدة فيما يرجع إلى أوامر القرآن وبواهبه وإلى
النصريح من نصوص التحليل والتحرر فيه . فلا مذاهب هنا ولا شيع ولا
تأويلات ، ومتى صرح الكتاب المبين بوجوب التحويل على العقل ، أو عوص
بالإنسان حق التحويل على عقله ، فليس لمسلم أن يبايع في هذا الحق أو في ذلك
لوجب ، وبكر الإسلام - كما هو معلوم - قد دانت به شعوب معرفة الأصول
والأحاساس واللغات . جاءت نراث في عاداتها وأفكارها فصرى هذا الاختلاف إلى
تفسيرات لبعض الآيات وتأويلاتها لبعض الأقوال والعبارات . ويجوز أن يقع هذا
الاختلاف فيما يتعلق بمواضع النظر وأساليب العهم والتفكير ، وهكذا حطر لبعض
المستشرقين وكتاب العرب الذين بحثوا في علاقة اختلاف الشعوب باختلاف مذاهب
لنظر والاجتهاد ، فظن بعضهم أن طوائف الشيعة آمنت بالإمام لأنها ورثت تقديس
الرؤساء والأحبار وقيدت من حق العقل في البحث والعهم بمقدار ما أطلقت من
سلطان الإمام ووكلت إليه من حق القيادة والإرشاد

ول هذا الظن من المستشرقين وهم لاشك فيه ، لأن هذه المسألة بدأتها - مسألة الدراسة العقلية قد كانت في طبيعة المسائل التي اشتملها الشيعة الإماميون ، ومن أقوال الشيعة الإماميين تلتق أساطين الفلسفة الإسلامية كلامهم في العقل والنفس وفي مذهب الأفلاطونية الحديثة ومذهب الأفلاطون بها على التحصيل . ويقول الشيخ الرئيس ابن سينا فيما رواه عنه تلميذه الخوارزمي : « كل من أتى من أصحاب داعي المصريين ويعد من الإسماعيلية وقد سمعت منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقربونه ويعرفونه هم وكذلك أئمتنا »

والفارابي أستاذ ابن سينا بالاطلاع والقنوة نشأ فيما وراء النهر ودعى أقوال الشيعة الإمامية في شروط الإمامة ومزج بينها وبين شروط أفلاطون في كتاب الجمهورية ، فجعل الإمام صفة الخلق في كمال الصفات واجتماع الصفات العقلية والنفسية ، بل فضائل الحمد التي تترتب على شواحب الصعف والمرض وكان إخوان الصفاء يذهبون بمذهب في الإمامة كهذا المذهب ويؤلفون الرسائل مع هذا في المنطق وفي علوم الرياضة والفلك وما إليها من علومهم العقلية ..

والدراسات المطقية - وسائر الدراسات العقلية - كانت من شواغل الشيعة الإماميين ولم يكن إيمانهم بالإمامة مما يصرف العقل عن التوسع في علم من العلوم ، وربما أخذت عليهم طوائف المسلمين إقراطاً في هذا الباب ولم تأخذ عليهم تعريضاً فيه يتمسكونه أو يساقون إليه على غير عمد . وإنما كان الإمام عندهم مرجع المختصين حين يتقطع بهم القياس ويؤول الرأي إلى هداية المعلم فيما جاور طاقة المتعلمين ، وحببتهم في ذلك أن المعرفة لا تتحقق كلها بالقياس وإن شيئاً وراء القياس يسمى أن يصار إليه في حال من الأحوال . وهم يلجأون إلى القياس حتى في إثبات هذه الحقيقة كما يؤخذ من المناقشة المشهورة بين الإمامين جعفر الصادق وأبي حنيفة . قال الإمام جعفر أيها أكرمياعان القتل أو الزنا ؟ قال الإمام أبو حنيفة . القتل ، فقال الإمام جعفر . فلم حمل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة ؟ أيقاس لك هذا ؟ ثم قال فأين أكرمياعان أو المني ؟ قال . البول . قال : فلم أمر الله في البول بالوصوه

وفي المنى بالعسل ؟ . أيقاس لك هذا ؟ . (١) إلى آخر الأمثلة التي ساقها لإمام جعفر . وهي في الواقع قياس للدلالة على أن القياس لا يعنى في جميع الأحوال عن الرجوع إلى الإمام المتوسع . فليس هو إنكاراً للقياس ولكنه إنكار لدعوى من يدعى أن القياس يصح لكن قضية ويعنى كل خلاف ..

ولسا قول إن الأمثلة قاطعة بالحجة ، لأن الواقع أن إثبات القتل أيسر من إثبات الزنا وأن تأويل الاختلاف بين طهارة الوضوء وطهارة العسل لا يمنع باندليل المقول ، فإن المسألة هنا ليست مسألة مادة تخرج من الجسم وكفى ، ولكنها مسألة الاختلاف بين حالة يصطرب لها الجسم كله وحالة لا اضطراب فيها كذلك الاضطراب ، وهو اختلاف يكفى لتفسير التطهير في إحداهما بالوضوء والتطهير في الأخرى بالفسل الذي يعم جميع الأعضاء

إلا أن المثل الذي ساقه الإمام كان في بيان لزوم القياس حتى في مناقشة القياس على إطلاقه ، ولم يحطى التوفيق جماعة المستشرقين في شيء كما أخطأهم في ظنهم أن تحكيم العقل يحطو على طائفة المسلمين لأنها ترى في الإمامة رأياً يخالف جملة الآراء في هذا الباب . ولعل الروايات التي يتناقلها المستشرقون أنهم عن الإسماعيلية والإمامية والفرق التي يسمونها بالباطنية حليفة أن تكون شاهداً صاحباً عنهم لإفراط هذه الطائفة في الاشتغال بالباطن لو أرادوا أن يصحوها بالإفراط فيه . أم إنها تنكر الباطن ، أو تنكر النظر والقياس ، فلا شبهة له مما تناقوه عنهم من ثلث الروايات ..

ولا عربة - بعد - في قيام فرقة بين المسلمين تخالف سائر الفرق في موضوع العقل والباطن ، فإن الديانات لم تحل قط من أمثال هذا الخلاف على وجه من لوجوه ، ولكن الواقع المقرر في هذه المسألة بذاتها أن حرية العقل لا يقيد بها في الإسلام حكيم مأثور على مذهب راجح أو على مذهب مرجوح ..

(١) مستد الإمام جعفر الصادق .

الفلسفة

فلسفة التاريخ ، وفلسفة اللغة ، وفلسفة الأخلاق . وفلسفة الرياضة ، وغيرها من أنواع الفلسفة مصطلحات حديثة يرد بها البحث في الطريقات والأفكار التي تقوم عليها تلك العلوم ، أو البحث في النظريات والأفكار التي تفسر تلك العلوم وتبين وجهتها وعائنها ، ويراد هذه الفلسفات - إجمالاً - إنها دراسات فكرية فحصة غير لدراسات التي تقررت بالوقائع والتجارب المحسوسة من قبيل علوم الطبيعة وما جرى مجراها ..

ولا أن الفلسفة التي نعينا هنا أعم من هذه الفلسفات جميعاً لأنها قد تشملها من وجهة النظر في الأصول وتجاوزها إلى البحث فيما وراء الحقائق المحسوسة ، مما يسمى أحياناً بالبحث فيما وراء الطبيعة أو البحث في كنه الوجود كنه عن التعميم ولاحد في التاريخ المتواتر أن هذه الفلسفة العامة - فلسفة ما وراء الطبيعة - شاعت في بعض الأمم القديمة وقل شيوعها في أمة أخرى

وبلاحظ كذلك أن بلاد الدول الكبار لم تكن بيئة صالحة لنشأة هذه الفلسفة وبسبب غلاصتها ، وأن الأمر لا يرجع إلى اختلاف درجات الحضارة بل إلى أسباب غير هذه السبب ، كما يؤخذ من تواريخ الحضارات الأولى

فأمم ومصر وبلاد ما بين النهرين وبلاد الدولة الرومانية كانت على درجة عالية من الحضارة وعلى حظ وافر من العلوم والصناعات ، ولكنها لم تنسج لشيوخ الفلسفة كما انصبت لها بلاد اليونان في عصر من عصورها قبل ميلاد المسيح ، وهي مع ذلك لم تنسج من الحضارة والعلم والصناعة مبلغ البلاد التي قامت فيها الدول الكبرى وقل فيها شيوع الفلسفة وتبوغ الفلاسفة .

والباحثون الأوروبيون يحسون أن يعلموا ذلك بعنة ترصيمهم وتدل عدهم على امتياز السلالات الأوروبية بين جميع السلالات البشرية

يقولون إن طلب المعرفة لخص المعرفة مربة من مرانا العقل الأوربي دون غيره بين
عقول الأمم من سائر الأجناس وإن الأمم من غير الأجناس الأوربية تطلب
العلم لسمعة وتهتم بالمعرفة لما تستعده في معاشها ، ولا تهتم بها لأنها
مطبوعة على التفكير وطلب الحقيقة لذاتها .

ودلائل لمصيبة العصرية هنا ظاهرة تكفي لإحراج هذه العلة من عداد نعل
العلمية ، الخالصة لوجه البحث والمعرفة . وقد حدث للأوربية أنها حشرت على
المنسفة حين عرست لها ظروف اجتماعية أو ميامية كالظروف التي سقتها في الدول
الشرقية ..

فالسبب العصري هنا قاصر عن تفسير العلة في اختلاف إقبال الأمم على
المنسفة ، وإعنا ترجع تلك العلة إلى أسباب واحدة بين الشرق والغرب . وبين
الماضي والحاضر ، كما تشابهت الظروف على تباعد الأزمنة وأجهات

والعالمات أن الدول الكبيرة ، وهي الدول التي تقوم عادة على الأهرار لكيرة .
تستقر في سلطة دينية متوارثة كالسلطة السياسية ، وإن هذه السلطة الدينية تستأثر
بناحث العقيدة ومباحث ما وراء الطبيعة ولا تسمح لأحد أن يراحمها في المعارف
التي تتعلق بالأرباب وأمرر الخلق وأصول الحياة أو أصول الوجود كله على اتعظيم
وقد وجدت هذه السلطة الدينية القوية في أوروبا بين القرن الثامن والقرن الخامس
عشر للميلاد فامتنع ظهور الفلسفة فيها وساء حظ الفلاسفة بين علماءها وبحكرى لعلم
من أحازها وكهاها . وحدث قبل ميلاد السيد المسيح أن عبادة الإمبراطور تفررت
في الدولة الرومانية وأن الدولة عرفت سلطان الكهانة بين شعوبها فامتنع فيها ظهور
المنسفة وبوج الفلاسفة ولم يكن محصولها مما بأوهر من محصول المنسفة في دول
الحضارات الشرقية . وقامت الدولة الرومانية ثم سقطت وهي عالة على بقايا فلسفة
ابونابية تأخذ من ما يحبس من فلسفة السلوك والأخلاق وتحجم عما عده من
أبواب الفلسفة المنسية بما وراء الطبيعة وما يخص في من المشكلات والأسرار

وقد عسر الإسلام هذا العارق بين الأمم في عنايتها العامة بالمنسفة في طريقته
العمية حين قامت فيه الدولة بغير كهانة . فكانت دولة الإسلام أرحم الدول

صديقاً وأصبحها فكراً مع الفلسفة على عمومها والفلسفة اليونانية في جملتها ، بل كانت الأمة الإسلامية أرحب صدراً وأصح فكراً مع الفلسفة اليونانية من بلاد العالم اليوناني الذي نشأت فيه ، كما يؤخذ من مصائر الفلاسفة بين أبناء العالم اليوناني ومصائر الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين في بلاد الإسلام .

كان دالوث ه الفلسفة الأكبر يتجمع من سقراط وأفلاطون تلميذ سقراط وأرسطو تلميذ أفلاطون ، وكان أشهر الفلاسفة بعد هذين فيثاغوراس إمام الحكمة الصوفية وريسون إمام الفلسفة الرواقية ، وكل من هؤلاء الحكماء - المعبرين عن حكمة عصورهم - قد أصيب في زمنه بمصائب لا يدل على قرار أمين .

فسقراط قصي عليه بالموت ، وأفلاطون بيع في سوق العبيد ، وأرسطو بما بنفسه من أُنْيَا خوفاً من عاقبة سقراط بعد أن رماه كاهن من كهانه بالإلحاد ، وقبل به التي بنفسه في البحر ورغم بعض مؤرخيه أنه لم ينجح نفسه فراراً من الاضطهاد ، بل غماً من تفسير حلة المد والجزر في البحر الذي ألقى نفسه فيه

أما فيثاغوراس فقد مات قتيلاً بجمادات مرزعة هول ، ونجح ريسون بنفسه لأن الآفة أمرته بذلك كما قال بعض تلاميذه ، ولا تعلم على التحقيق علاقة مصيره هذا ولا مصير فيثاغوراس بالدعوة الفلسفية ولكنه - على أي وجه من الوجوه - مصير لا يدل كما أسلفنا على قرار أمين ..

ونقارن بين هذه الأحوال التي عرصت لأكثر فلاسفة اليونان وبين أحوال الفلاسفة من المسلمين من المشتغلين بالفلسفة اليونانية وهي أجنبية في البلاد الإسلامية فلا يرى أحداً أصيب بمثل هذا المصائب من جراء الفلسفة أو لأفكار الفلسفية ، ومن أصيب منهم يوماً بمكروه فلما كان مصابه من كيد السياسة ولم يكن من خروج بالفلسفة أو حجب على الأفكار ..

فأشهر الفلاسفة المسلمين في المشرق ابن سينا الملقب بالشيخ الرئيس دحل السجس لأنه كان عند أمير همدان مبرم بالمقام عنده وأراد أن يلحق بأمر أصفهان علاء الدولة ابن كاكويه فسجنه أمير همدان ليقيه إلى حواراه ولم يسجنه عقوبة به على رأى من آرائه ..

وابن رشد أشهر الفلاسفة المسلمين في المغرب أصابته البكة لأنه لقب الخليفة المنصور في بعض كتبه بلقب ملك البربر وكان يصادق أخاه «أبا يحيى» ويرفع الكلفة بينه وبين الخليفة فيناديه «يا أحيى» وهو في عظمة الخاص بين وديرائه وكرائه ، ويحتاج المؤرخ في كل مصادره فكرية أو دينية كما قلنا في تاريخ الفيلسوف - إلى لمحة من مسين أحدهما معلل والآخر مصر ، قليلا ما كان السبب الظاهر هو سبب البكة الصحيح ، وكثيراً ما كان للبكة غير سببها الظاهر سبب آخر يدور على بواعث شخصية أو سياسية تهم دوى السلطان ويسرى هذا على الشعراء كما يسرى على الفلاسفة ، ويسرى على الجماعات كما يسرى على الآحاد . ولقد نكب بشار ولم ينكب مطيع بن أباس وكلهما كان يتردق ويهرف في أمور الزندقة عما لا يعرف ، ولكن بشاراً هجا الخليفة ومطيع لم يقترب هذه الحاجة . فجاء مطيع وهلك بشار ، ولم يكن ابن رشد أول شارح لكتب الأقدمين فقد سبقه ابن باجة إلى شرح بعضها وإن لم يتوسع في هذا العمل مثل توسعه ولكن ابن باجة كان يحسن مصاحفة لسلطان وبني رشد لم يكن يحسن هذه المصاحفة ، فنكب ابن رشد ولم ينكب ابن باجة ولم يكن عن الفيلسوف المكروب أنه شرح الكتب كما تقدم بأمر من أبي الخليفة .

واشتغل بالفلسفة اليونانية عبر ابن سينا وابن رشد أعلام من هذه الطبقة من طراز الكندي والفارابى والرازى ، كما اشتغل بها أناس دون هذه الطبقة في الشهرة والمكانة فلم يصب أحدهم بمسوء من جراء تفكيره ولم يصددهم أحد من البحث والكتابة إلا أن تمتدحهم حيالة من حائل السياسة فينالهم بها ما ينال سائر صحابائها ولو لم يكن أسهم في مذاهب الفلسفة أو الدين

• • •

وربما كست السياسة وراء دعوات المتفلسفين كما كانت وراء المصادرة من جانب الدولة وحكامها . لأن الزندقة التي كانت تستتر بستر الفلسفة إنما كانت في ناحية من نواحيها ثورة محسوسة ترمى إلى هدم الدولة الإسلامية من أساسها وإقامة الدولة الفارسية في مكانها . وتنسب الزندقة في أرحح الأحوال إلى كلمة «رنداء» التي

كانت تطلق على شرح كتاب «رددشت» وتعليقات الديباجة المحوسبة . وربما عمد الخفاء إلى أناس من العلويين فانهموهم بالزندقة على خلاف المقول أو لمتظر من أسرة تقيم حقوقها في الخلافة على وراثته التي عليه السلام والمحافظة على رسالته النبوية ، ولكن الشبهة كانت تلحق بهم من الاشتراك في مقاومة الدولة ولو على غير ندهم بين الفريقين ، وكان أعوان الدولة يحشروهم جميعاً في مرة واحدة تشويه الحركة العلوية بإلقاء الشبهة عليها من الوجهة الدينية

أما فيما عدا السياسة وشبهاتها ومكائدها فلم يصادر أحد من المشتغلين بالفلسفة لأنه يتفلسف أو يحوّص في بحث من الحوث الفكرية على تشعبها ، وما لم يكن هذا لتعسف عندوا عماراً بمحاربة الدين والدولة وبشر الفتنة فلا جناح عليه ولا قدرة الخليفة أو أمير على مصادره باسم الإسلام

وبصدق هذا من باب أولى على الفلسفة الإسلامية كما يصدق على الفلسفة لأجنبية ، فلم تنقطع بحوث المعتزلة وعلماء الكلام لمبرلة من علل اسبسية لا تلبث أن تزول بزوال المعتزليين ، وقد طرق المعتزلة وعلماء الكلام كل باب معنق من أبواب الأسرار الدينية التي حجرت على الكهان القوية و ادبيات الأولى فنظروا في العقيدة الإلهية وفي أصول الخلق والوجود وأحكام السوءات وعددوا الأقوال والآراء في كل باب من هذه الأبواب على أوسع مدى وأصرح بيان ووسعهم الإسلام جميعاً وإن صاق بعريق منهم في بعض الأحيان

• • •

ومن البدهي أن اشباع الفرق يحطون في مناقشاتهم ، وإن الأمراء يحطون في سياستهم ، وإن الدين يتبعه المخطئ والمصيب والخاذع والناصح ، فليس حكم الإسلام في مباحث الفلسفة برأى هذه الفرق في تلك ، ولا هو محيطة هذا الأمر أو ذلك بما يقصدان إنه من مآرب السياسة وإما حكم الإسلام هو حكم الكتاب والسنة المتفق عليها ، وليس في الكتاب ولا في السنة كلمة واحدة تحجر على التفكير في شأن من شئون الفلسفة أو مذهب من مذاهبها ما لم تكن في المذهب الفلسفي

موقفة غير مأمونة على الشريعة أو على سلامة الجماعة فلا حناج على الفيلسوف أن
يظهر فيما شاء وأن يهضح عن وجهة نظره كما شاء

وإذا بدا لنا أن يتمسك بقياس الحرية الفكرية من الواقع المائل للعبان أو من
الناحية العمية التي تكشف لنا في حياتنا اليومية ، فهناك إلى جانب الكتاب
والسنة دليل على حرية الإسلام يتغرز بحكم التاريخ الواقع ولا يلحنا إلى تأويل
الآيات والأحاديث ، وهذا الواقع يقرر لنا دليله من روح الدين التي يوحى بها إلى
جملة أتباعه في حملة عصوره فلم يكن من روح الإسلام التي أوحى بها إلى جماعته
أن يثير فيهم البغضاء للمعكر والمفكرين وأن يبيع لهم عقوبتهم بالتعذيب والإحراق
والحرمان من حقوق الإنسان . ولم يكن هذا الدليل الواقعي من روح الإسلام
مقصوراً على وطن أو سلافة يقال إنه مستمد من تراث ذلك الوطن أو تلك
السلافة ، ولكنه عم بلاد المسلمين جميعاً في عصور كثيرة ، فلا يرجع به المؤرخ
المصنف إلى وحى غير وحى الكتاب الكريم ..

وتجلى سمة الدين الإسلامي في موقف الفلاسفة منه كما نتجى في موقف الدين
من الفلاسفة . فان كبار الفلاسفة المسلمين قد حاصروا عمار الأفكار الأحسية بين
يونانية وهندية وعارسية وعرصوا لكل مشكلة من مشاكل العقل والإيمان وتكلموا
عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس . وخرجوا من سبحانهم الطولية في هذه
العام والمجاهل فلاسفة مسلمين دون أن يعتبرا أذهابهم في التحريج والتأويل

ومهم من ترجم أرسطو وأفلاطون إلى الإسلام فكراً وتقديراً فلم يصبر عليه أن
يذهب معها إلى أقصى المدى في رأى العقل دون أن يخرج من حظيرة الدين .

• • •

وعن فيما تعلم من مذاهب هؤلاء الفلاسفة الكبار - لا يرى فيسوفاً قال في
خلق الخلق واختلق ما يكره المسلم المؤمن بالله والوحى أو حجب به التعبير العنسي إلى قول
يأباه السامع الذي تعود التعبير عن مسائل الدين بلغته العربية وأسلوبه المتعارف بين
حمهرة المتدينين ..

وأكبر الفلاسفة المسلمين الذين استوعبوا مسائل الفلسفة بما وراء الطبيعة هم في الرأي الغالب بين مؤرخي الثقافة الإسلامية أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا في المشرق وأبو الوليد بن رشد في المغرب ، وكلهم قد اطلع على قسط وافر من فلسفة الحكماء أملاطون وأرسطو وطائفة من آراء الحكماء الآخرين ، وليس فيهم من ذهب إلى رأي بما وراء الطبيعة لا يذهب إليه الفيلسوف المسلم إذا تكلم بنقطة الفلاسفة ..

«ولفارابي هو أول الفلاسفة المسلمين الذين تعلمد لهم ابن سينا نوعاً من التسلسل» . فقرأ له وانتفع بما قرأ في مهم مصامين الفلسفة اليونانية ، وكان «المعلم الثاني» معلماً كاملاً له في مصطلحات الفلسفة الإلهية بمجملتها ، لأنه أصاب مسائل الحكمة الهندسية إلى مسائل الحكمة المنطقية وأدخل مسألة التوفيق بين العقل والوحي في حسابه ، وقد كانت من المسائل الحديثة في الإسلام فلم يبل فيها أحد بلاء الفارابي ولا جاوز أحد فيها مداه الذي انتهى إليه وإن تبعه في هذا الهام كثيرون . ومن توفيقاته به سمى العقل الفعال بالروح الأمين وسمى العقول بالملائكة وسمى الأفعالك نبي في العقول بدلاً الأعلى ، وقال إن صفات الله الأربعة هي المثل الأول والمعلم الثاني الذي اتفق عليه جلة الثقاة أن فلسفة الفارابي فلسفة إسلامية لا يحار عليها . أعلم ير فيها جمهرة المسلمين المعنيين بالبحث الفكري حرجاً ولا موضع رية ، ولا تخالفاً تغضب متدينين بالإسلام أو بعيره من الأديان ..

فالمعلم الثاني يرى المعلم الأول - وهو أرسطو - من إنكار خلق العالم ، وبفسر آراءه على وجه يرصاه المؤمنون بالله والنوثة ..

«فاقفه عنه هو «السبب الأول» والسبب الأول واجب الوجود

لأن العقل يستلزم وجوده ولا يستطيع أن ينفيه محال . فكل شيء له سبب وكل سبب له سبب متقدم عليه . وهكذا إلى السبب الأول الذي لا يتقدمه سبب من الأسباب . والا وقعنا في الدور والتسلسل وهما باطلان

«وهذا السبب الأول واحد لا يتكرر ، بسيط لا يتغير ، لأنه لو تكرر أو تغير لاحتلف ووجب البحث عن سبب لاختلافه ، وقد انتهت إليه جميع الأسباب .

هذا السبب الأول هو علة وجود كل موجود ، ولا يمكن أن يكون العالم هو السبب الأول لأنه متكرر متغير فلا بد له من سبب متقدم عليه . ومن ثم تنقسم الموجودات إلى قسمين : قسم «واجب الوجود» يستلزم العقل وجوده لا محالة ، وهذا هو السبب الأول ، أو هذا هو الله سبحانه وتعالى ، ويوصف بكل صفات الكمال دون أن يقتضي ذلك التعدد ، لأن بي الغائض المتعددة لا يقتضي التعدد ، بل هو صفة واحدة معناها الكمال ..

وقسم منقسم إلى سبب ، ووجوده ممكن ، ولكنه يتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بسبب واجب ، فهو مخلوق على هذا الاعتبار

وقال الفارابي في الفظة عن أرسطو في إنكار القول بحلق العالم : يوم دعاهم إلى ذلك الظن أيضاً ما يذكره في كتاب السماء والعالم أن الكون ليس له بدء رمان ، فيقول عند ذلك أنه يقول تقدم العالم وليس الأمر كذلك ، إذ قد تقدم فيه في ذلك الكتاب وغيره من الكتب الطبيعة والإلهية أن الزمان إنما هو عدد حركة الفلك وعنه يحدث ، وما يحدث عن الشيء لا يشتمل ذلك الشيء ومعنى قوله أن العالم ليس له بدء زمانى أنه لم يتكون أولاً فأولاً بأجزائه كما يتكون البيت مثلاً أو الحيوان لدى يتكون أولاً فأولاً بأجزائه يتقدم بعضها بعضاً بالزمان ، ولزمان حادث عن حركة الفلك ، محال أن يكون لحادثه بدء زمانى ويصح بذلك أنه كما يكون عن ابتداء لبارى حل جلالة إياه دفعة واحدة بلا زمان ، وعن حركته حدث الزمان ..

وعلى هذا يكون المخلق في رأى المعلم الثانى هو الإخراج من الإمكان إلى الفعل ، ويكون الوجود بالفعل مصاحباً للزمان . أما الوجود بالقوة فهو في علم الله الذى لا زمان له ولا مكان لأن الله أبدي لا أول له ولا آخر ، وإنما يفترق الزمان بالموجودات المتحركات وهذا ولا ريب اجتهد من المعلم الثانى في تفسير كلام المعلم الأول ، ولكنه استحسن هذا الاجتهاد لأنه قرأ كتاب «النيولوجية» أو «أريوية» كما سماه وطنه من تواليف أرسطو ، وهو من آراء أفلاطون وتفسير ملك الصورى واسكندر الأفروديسى ، ولهذا استطرد الفارابى بعد الكلام السابق قائلاً : ومن نظر

في أقاويله في الربوبية في الكتاب المعروف بأثولوجية لم يشته عبه أمره في إثباته اصابع المبدع هذا العالم ، فإن الأمر في تلك الأقاويل أظهر من أن يجي ، وهناك تبين أن طوبى لدعها الباري حل ثاؤه لا عن شيء وأنها تحسنت عن الباري سبحانه ثم ترتبت . . .

وهذا في الحقيقة مستمد من كلام أفلاطون وتوسع فيه اسكندر الأفروديسي . ثم جاء المعلم الثاني فتوسع في كلام الأفروديسي وزاد عليه ما وفق بينه وبين الدين ، ولا سيما في مسألة العقول والأفلاك التي هي عند الفارابي من ملائكة الله . ويؤكد من شرح الفارابي لبعض كلام ريسون الفيلسوف الروافى أنه اعتمد عليه أكبر اعتماد في مسألة العقول . ولهذا كان مذهب الفارابي جامعاً بين مذهب أرسطو عن الحركة ومذهب أفلاطون عن الصدور ومذهب أفلاطون عن المثل الأدبية ومذهب الروافيين في النفس اعاقلة وابتنائها في الأجسام . فقد الأزل وحدث الأشياء في علم الله وهذا هو علة وجودها ، والله حل وعلا بعقل العاقل الأول صادر عنه فانص من وجوده . وهذا العقل الأول هو الذي يحرك العقل الأكبر وتأتي بعده عقول الأفلاك لتتوابع إلى العقل العاشر الذي يعقد الصلة بين الموجودات العلوية والموجودات السفلية

والوجود إذن ثلاث مراتب . أولاها الوجود الإلهي ، وثانيها وجود هذه العقول متدرجة ، وثالثها وجود العقل الفعال . ومن هنا نفهم كيف تعددت الكثرة عن الواحد الذي لا يتعدد ، وكيف جاءت الصلة بين المعاني المجردة والمحسوسات ^(١) .

«أم ابن سينا فعده - كما عند أرسطو - أن المادة الأولية والصورة والعدم هي الأصول الثلاثة التي عنها تصدر كل الأحسام الطبيعية . والعالم مخلوق لم يحدث في زمان يقول مذهبواه أن هذه الكائنات إما أن تكون ممكنة الوجود جميعاً وإما أن تكون جميعها واجبة الوجود . ومحال أن تكون ممكنة الوجود جميعاً . لأن الممكن يحتاج إلى علة تخرجه من حيز الإمكان إلى حيز الفعل . ومحال أن تكون واجبة الوجود جميعاً . لأنها بين متحركة تحتاج إلى محرك وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركبها . ولأن

(١) تراجع رسالة الشيخ الرئيس ابن سينا لمؤلف هذا الكتاب .

أن تسبقها أجزاؤها فهي إذن بعض ممكن الوجود وبعض واجب الوجود وواجب الوجود هو الذي لا تتصور عدمه ، لأن عدمه يوفى في المحال ومن المحال أن يكون واجب الوجود مسبوقاً ، لأن الذي يسبقه يكون إذن أولى بالوجود ومن المحال أن يكون مركباً لأن أجزاء المركب تسبقه وتحتاج إلى فاعل للتركيب والإيجاد فهو أول . وهو جوهر بسيط متزه عن التركيب ..

ولم يكن ابن سينا مدعياً في كلامه عن واجب الوجود ، أو ممكن الوجود ، لأن الفارابي قد سبقه إليه ، كما سبقه المعتزلة وبعض المتكلمين ولكن ابن سينا قد أديع تقسيم الوجود إلى واجب بداته وممكن بداته ولكنه واجب بغيره . وبذلك وفق بين الفاتلين بقدوم العالم وخلفه . فإن العالم ممكن بداته ، ولكنه واجب بغيره . لأنه كان في علم الله وما كان في علم الله لا بد أن يكون .

وليس العالم حادثاً في زمان لأن الزمان وحد مع العام . تحرك العالم فوجد الزمان مع هذه الحركة ، وإنما كان وجوده لأنه وجد في علم الله فأخرجه الله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ، والله قديم بالذات سرمد لا يمحيط به وقت ولا عمل . فالعالم كما كان في إرادة الله قديم . وكما كان بالحركة مسبوق بدت الله . وهو سبق للسرمدي لا يحد الزمان . وهنا يقول ابن سينا بالحركة الأولى كما قال أرسطو بها أو بالعلة الأولى^(١) ..

وقبل الاستطراد إلى تلخيص مذهب ابن رشد بلم المسائل التي تثار علب الخلاف بين «اللاسفة والفقهاء بعد عصر الفارابي وابن سينا وكان أكثره حلقاً عن التعبيرين المعاني الجوهرية . ويدور كله على مسائل أربع هي قدم العالم وعلم الله بخرائات وخصات الله وخلود النفس بعد الموت ..

وقد كانت لابن رشد آراء في كل مسألة من هذه المسائل ليست مطابقة لما فهمه الأوروبيون في القرون الوسطى وليست معاصرة لها كل المعاصرة . ولكنها آراء كان الفيلسوف حريصاً كل الحرص على أن يلتزم بها حدود دينه ولا يخرج بها عما يجوز

(١) تراجع رسالة الشيخ الرئيس ابن سينا للمؤلف

للمسلم أن يعتقد وأن يعلمه للمسلمين ، وسنرى صلب ما أصابه من التوفيق في هذا التوفيق :-

« يقول ابن رشد عن قدم العالم في كتابه فصل المقادير . وأما مسألة قدمه أو حدوثه فإن الاختلاف فيها عدى بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ما هنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا في نسبة الطرفين واختلفوا في الواسطة . أما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شئ غيره وعن شئ . أعني عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم عليه . وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكوينها بالحوس مثل تكون الماء وهواء الأرض والحيوان والنبات وغير ذلك . فهذا الصنف اتفق الجميع من القدماء والأشعرية على تسميته محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شئ ولا عن شئ ولا تقدمه زمان ، وهذا أيضاً اتفق الجميع من المرافقين على تسميته قديماً ، وهذا الموجود يدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، وهو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره . وأما النصف من الوجود لدى بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شئ ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شئ أى عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره والكل منهم متفق على وجود هذه النصف الثلاث للعالم .. فإن المتكلمين يسمون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك . إذ الزمان عندهم شئ مقارن للحركات والأجسام » (١) ..

وأما علم الله بالجزئيات فابن رشد يقرر فيه أن علم الله يشهد أن يكون كعلم الإنسان الذي يحدث بعد حدوث المعلوم فإن الله يعلم كل شئ ولا يتوقف علمه على حدوث جزء بعد جزء من هذه الأشياء .

وأما مسألة الصفات فلم تكن موضع بحث عند الفلاسفة الأغريق ، ولم يكملها لها شأن كبير عند فلاسفة الأوربيين في القرون الوسطى ، ولكنها أثارت الحدل انطويل بين علماء الكلام والمعتزلة والفلاسفة المسلمين ، ومثال احيدل فيها أن بعض

(١) تراجع رساله ابن رشد للمؤلف

الفلاسفة يقولون . إن صفات الله هي غير ذاته ، وأن الصفات ليست برائدة على ذات الله ، لأن ذاته سبحانه وتعالى كاملة لا تتعدد ، وغير هؤلاء الفلاسفة ، يردون عليهم ليوضحوا بين تعدد الصفات ووحداية الله .

والتحقيق القول بخلود النفس عند ابن رشد يسفي الرجوع إلى مذهب أرسطو في النفس والعقل ، لأنه إذا صح ما قيل من أن توما الأكويني نصر أرسطو فأصح من ذلك أن ابن رشد حقه أى جعله مسلما حقيقيا واجتهد في تنقيته من كل ما يخالف العقيدة الإسلامية غاية اجتهاده ، وقد أعان ابن رشد على ذلك أن كلمة الروح عندنا تشمل معنى النفس والعقل معا في معظم معانيها ، فالنفس تقرن بالشر والذم في كلامنا ولما تقرن الروح بمثل ذلك ، فإذا قبل نفس شريرة على العموم من سائر أن يدل ذلك على الروح وعلى الروحاني ، لأن الروحانيات أشرف وأصل من ذلك وقد تكلم أرسطو عن النفس والعقل في كتاب الأخلاق وفي كتاب النفس ووضح في كلامه عن العقل أنه ينطبق أيضا على الروح كما قال في كتاب الأخلاق عن السعادة اللعب للإنسان ، وهي سعادة التأمل ثم قال : مثل هذه الحياة ربما كانت أرفع جدا مما يستطيعه الإنسان ، لأنه لا يحيا هذه الحياة باعتباره إنسانا ، بل يحياها بمقدار ما فيه من النعمة الإلهية ، والفرق بين هذه النعمة الإلهية وبين تركيبتها الطبيعي كالفرق بين عمل ذلك الخائب الإلهي وعمل الفصائل الأخرى ، وإذا كان العقل إلهيا فالحياة على مثاله إلهية بالنسبة إلى المعبشة الإنسانية ، وعليها ألا تنزع أوثق الذين يصحون لما مادنا بشرا أن تشتمل هموم الشر ومادنا فأنى أن يعمل عمل الفانيين ، بل عيب ما استطعنا أن نعمل عمل الخالدين وأن نحرك كل عرق من عروقنا حتى نسمو إلى مرتبة أرفع منها - وإن قل وصغر - لأقدر وأكمل من كل شيء عدا .

وأما النفس عند أرسطو فتكاد أن تكون في أكثر مصطلحاته مرادفة للوحيية حيوية ، وهذا يسب إلى اليات نفسا نامة ، وإلى الحيوان نفسا شهوية ، ويسخر من فيثاغوراس الذي يقول أن نفس الإنسان قد تنتقل إلى حيوان ، ويرى أن السؤال عن العلاقة بين النفس والجسد كالمسؤول عن العلاقة بين الشمعة

وصورتها . فلو لا صورة الشمعة لكات شحبا ودهنا ولم تكن شمعة ، ولو لا نفس الإنسان لكأن الإنسان لحما وعظاما وعصا ولم يكن بالإنسان (١١) .

ومن رشد يؤمن بقاء الروح الإنسانى حيث يبقى عالم الروح كله . فليس هو من لفلسفة الماديين لأن هؤلاء الفلاسفة الماديين لا يؤمنون بروح للإنسان فى هذا العلم أو فى عالم آخر ، وليس بين الفلسفة الإلهيين من ينكر بقاء الأجساد إكرامه لقدرة الله على بقاء ولكهم يقولون إن الأرواح المفارقة أشبه بالعالم الأعلى ومن آمن بالله وآمن بقدرته الله وآمن بالعث والعالم الأعلى ما هو من الملحدتين (١٢)

هذه المقالة السريعة للنقص موقف الفلاسفة

من الإسلام وموقف الإسلام من الفلسفة ويبدو من كلا الموقعين أن العقيدة الإسلامية لم تنقص عن لقاء الثقافات الأجنبية عند التقائها بها فى المواجهة الأولى ، وأخرى بهذه العقيدة الشاملة ألا تصيب بثقافة من الثقافات بعد اتصال الأمم واستعصاة العلاقة بين معارفها وعقولها فلا يزال موقف الإسلام من حكمة الحكماء فى تصور الأخيرة كموقفه منها فى صدر الدعوة الإسلامية وبعد أجيال قليلة من شيوخ الدعوة بين مختلف الأقوام والشعوب وموقفه اليوم - كموقفه بالأمس - أنه لا يميل بالعسفة لأنها تفكير فى حقائق الأشياء ، لأن التفكير فى السموات والأرض من فرائض التنوير ، ولكن المذاهب العنسية قد يظهر فيها ما يصبغ بالإسلام ويخالفه حيا بعد حين ، وللتقريب على عقيدة نخالفها بعض العقول ، لأن العقائد لا تطالب بموافقة كل عقل على سواء أو على انحراف . وحسبها من سماحة أنها لا تصيد عقلا من سواء ..

العلم

العلم الذي أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدرّكها الإنسان بالظرف ملكوت السماوات والأرض وما خلق من شيء . ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة ..

• • •

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(سورة الأعراف)

• • •

﴿ أَعْلَمُ بِظُرُونِهِ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ كَيْفَ خَلَقْتُ ۖ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعْتُ ۖ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ بَصَّيْتُ ۖ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَعْتُ ۖ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة العاشية)

• • •

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآفَاقِ الْبَحْرِ فِي السَّحَابِ بَنَفْعٌ لِلنَّاسِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَاهُ الْأَرْضَ بِمَدِّ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالشَّجَرِ الْمُسْتَغْرِثِينَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَا يَبْصُرُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۖ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الفرقة)

فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد في الواجب أن يعلم ، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر ، لأنه عادة أعم من عادة الصلاة والصيام ، إذ كان حير عادة الله أن يتدلى الإنسان إلى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله ..

ولهذا قال النبي عليه السلام في فضل هذه العبادة . «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ..»

وقال : «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء .

وقال . «من حرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» ..
وذكر له عليه السلام رجلان عابد وعالم فقال «فصل العالم على العابد كفضل علي أدناكم»^(١) .

وهذا غير الأحاديث النبوية التي وردت في فضل المعرفة والحكمة وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة لما اجتمعت فيه أوامر الله ونبيه على هذا المعنى المتكرر في مواضع شتى من القرآن الكريم ومناسبات شتى من الأحاديث النبوية .

وموقف الإسلام من العلم - أو من العلوم عامة - يبين من موقف علمائه المتهندين في كل حقبة من تاريخه الذي تعاقبت به الأجيال بين القوة والضعف والتقدم والتأخر والنشاط والجمود . فقد مرت بالأمم الإسلامية عصور متحفة جهت بها الإسلام نفسه فجعلت فصل العلم كما جعلت فصل الدين ، ولكن الإسلام لم يحل قط تاريخه بين الشرق والمغرب من أمة متهندين استمدوا حرية الفكر من ينبوع تلك القوة الحيوية التي لاستتفزها الهن والطوارق ، فحفظوا رسالة هذا الدين ولاهرق بينها وبين رسالة العلم في مقصد من مقاصده ، وأوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وجد العلم وأن ينظر إلى الحكمة كأنها هي صلاته بعينه أن يبحث عنها ويجدها «وأيما وجدها فهو أحق بها» كما تعلم من رسول الله واعتقد الأئمة المتهندون على

(١) برآبع الجزء الثالث من تفسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول، لعبد الرحمن بن عبيد

جميعاً أهم يؤدون أمانة الكتاب في حثهم جماعة المسلمين على طلب المعرفة حينها ويجدوها بكل معرفة صحيحة فهي معرفة قرآنية إسلامية على اختلافهم في تفسيرها والنسبة إلى الكتاب الكريم بين فئة ترى أن المعرفة محتواة فيه إجمالاً وتفصيلاً وفئة ترى أن المعرفة مطلب من مطالب المؤمن بالكتاب لا يفوقه عائق منه أن يتحررها ويحققها ويبتدئ بها حيناً أصابياً ..

إن موقف الإسلام من العلم - كتاباً وسنة - لا يحتاج إلى سان عد ما تقدمت الإشارة إليه من تلك الآيات والأحاديث

ولكن نعتقد أن الدين روح يث في الأخلاق والتقاليد إلى جانب المصوص والأحكام ومن هذا الروح يظهر عمل الدين في الواقع ولا يحسب لدين من الأديان عمل بالغ في حياة البشر ما لم يث له هذا العمل بعد اتباعه بما يوحى إليهم من روح يصدر عنهم عنها مما يسمونه ولم يتعمدوه من أفعال أو غلات وآداب وروح الإسلام الذي يث بين أتباعه يترامى في تاريخه المشعب الطويل ساحة تعصمهم من تلك النقرة التي انصبت على ألوف من الخلق لاستباحتهم من المعارف والبراسات مانحمة عليهم معتقداتهم الدينية أو كهاهم الدين يثأثرون دونهم بتغير تلك المعتقدات ، وربما كانت ساحة الروح الإسلامي في عصور الحمود والجهالة أدل على فصل الإسلام من ساحة أئاعه في عصور القوة والحضارة لأن الدين الذي يعمل عمه في الأخلاق والآداب وقومه جامدون محجوبون عن العلم أقر بأهذية من دين يعمل وله سند من القوة والحضارة ، ولو كان هذا السند قائماً عليه ..

وروح الإسلام في العصور الأخيرة ظاهر في موقف المسلمين من العلوم الحديثة كظهوره في موقف الأئمة المتهدين الذين حفزوا قواهم إلى الإقبال على تلك العلوم والتبسط بها واعتار العمل بها أمراً من أوامر القرآن الكريم فان العلوم المعصرية عرفت باسم العلوم الأوروبية يوم كانت أوروبا كلها حرباً على العالم الإسلامي تميز على بلاده وتستذل شعوبه وتقوض مقام ليهم من دولة وسلطان وتعي على الغية لبقية حيث تحلقت للدولة والسلطان بقية تمنع في التسليم والاستسلام . فكان خليفاً هذا العداء أن يمثّل في نفوس المسلمين عداء لكل وارد من القارة الباغية

وكل مسلوب إلى الأوروبيين المعتدين ، ولكن علوم الحضارة الأوروبية لم تجد من المسلمين بعد المقاومة الطبيعية التي تخلفها الحاجة أو المصادمة الأولى إلا كثر ترحيب وتقدير ، ولعلهم - بعد تلك المصادمة - كانوا بحاجة إلى التحذير من الإفراط ولم يكونوا يوماً بحاجة حدية إلى التحذير من الأعراض والانتقاص والتعريط في تحصيل ما استطاعوه من معارف القوم ، كأنها صالة مرتفعة هم أحق بها مما يعتدى بها عليهم ويسومهم من أجلها التسليم والامتثال .

* * *

والإفراط إما يحذر من محاولة التوفيق بين القرآن الكريم وبين تلك العلوم في كل جيل ودقيق مما ثبت ثبوت اليقين ومما يعرضه أصحابه عرضاً يحتمل المراجعة ، بل يحتمل النقص والإلغاء ..

من الحق أن نعم أن كنا نأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول ، ولكن ليس من الحق أن نزع أن كل ما تستطه العقول مطابق لنكتات مدرج في ألقاطه ومعابه فإن كثيراً من آراء العلماء التي يستلظفون أو أن الأمر لا يبدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ويخطئ منها ما يخطئ ، ولا نستغنى عن الدوام من التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين

وقيل من الأمثلة يعني عن الإفاضة في شرح المنهج السديد الذي يتوحى في الرجوع بطريات العلم الحديث إلى الآيات القرآنية ، وأنعم هذه الأمثلة ما يقتبس من أحدث الآراء في التأويل والتوفيق بين النظريات وآيات الكتاب ..

من أصحاب التأويل في العصر الحديث من خطر له أن السيارات السبع في المنظومة الشمسية هي المقصودة بالسماوات السبع في القرآن الكريم . وخطأ هذا التأويل ظاهر ، لأن الفلكيين الذين ذكروا السيارات السبع أدخلوا الكرة الأرضية بينها ولم يحطوا الأرض مقابلة للسماء ، وهذا على أن الفلكيين المتأخرين قد كشفوا عن سيارات أخرى لم تكن معروفة للأقدمين وهي تلك الجنيات وأرانوس وستون وبولطس ، وكان الكشف عن هذا السيارات متأخراً فلم يظهر قبل شهر مارس عام ١٩٣٠ ولا تزال في هذا الفلك الشمسي أجرام سماوية - كالمذنبات والشهب -

سحل في عداد السيارات ويدور بعضها حول الشمس في مدة أقصر من مدة
النورات التي حسبت لأراتوس وتيتون وبلوطس ..

وقد تبه هذا الاعتراض الأستاذ هبة الله الشهرستاني صاحب كتاب الهيئة
والإسلام هذا أنه أن السيارات الشمسية مشار إليها في القرآن الكريم بالأحد عشر
كوكباً التي ذكرت في سورة يوسف ، ولكنه - لمعرفته بعلم الهيئة - يعلم أن السيارات
بعد الكشف الأخيرة عشر وليست بأحدى عشرة ، وهي بلوطس وتيتون وأراتوس
ورجل والمشتري والحيات والمربع والأرض والزهرة وعطارد ، فقال مستدركاً بعد
الإشارة إلى الحيات ، « فإن قلت أن سيارات شمسنا ليست أكثر من تسع فهذا
تعد إحدى عشرة ؟ قلت : لنا على يقين من هذا التعليق ولكن التسعة بعد زيادة
السيارات المنهقة إلى الحيات تكون عشرة لا بصرتنا عدم اندراجها الآن في عداد
السيارات لأنها كانت في عدادها سابقاً وهو كاف في مقام إذا نظر إلى ما كان
لشمسنا من السيارات بقيت أو حذمت عرفت أو جهت »

وكان من المشجعات حقاً للفاحص الشهرستاني على اتخاذ هذا الرأي أنه ذهب
ليه بعد أن قرأ في تفسير النيسابوري والزمخشري « أن يهودياً سأل النبي الأُمي صلى
الله عليه وسلم عن النجوم التي شاهدها يوسف في المنام فقال صلى الله عليه وسلم :
جريان وطارق وذبال وقابس وعمودان ولفلق ومصيح وصروح وفرع ووثاب وذو
الكفين فأسلم اليهودي »^(١)

وهذه الرواية رواها ابن بابويه الصدوق في الحفصان عن جابر بن جابر بن جابر
اختلاف يسير ، ورواها الحافظ القمي عن جابر في تفسير قوله تعالى ﴿إِنِّي دَائِمٌ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ثم هي تلك النجوم بتغيير يسير .

قال الأستاذ الشهرستاني : « أن اختصاص النجوم من بين نجوم السماء لأبد من
أن يكون بصفة مختصة بهذا العدد اليسير لا يشترك فيها سائر النجوم . ويؤيده أيضاً
انطباق كثير من هذه الأسماء على سيارات شمسنا .. فالجريان أرضنا وقد ورد

(١) ص ٢٣٢ من كتاب الهيئة والإسلام لهبة الله الشهرستاني

إطلاق الجارية على أرضها في غير هذا البحر كما مر تفصيله في المقالة الثالثة عشرة من مسألة تعدد الأرضين .. والطارق الزهرة فإن الطارق كوكب الصبح على ما في القاموس والعرب لا يوصلون في كوكب الصبح غير الزهرة قديماً وحديثاً . والدبال على ورن قطاع يطلق في اللغة على السحب العائد للطراوة ، وعطارد أيضاً كثير الجفاف عائد للطراوة من شدة قربه من الشمس ، والقاس يطلق في اللغة على ما اكتسب الحر الشديد من نار عظيمة وسجمة فلكان أيضاً تكتسب الحرارة الشديدة من نار لا ترى أعظم منها لها أعلى الشمس ، فإن قربها مفرط من فلكان ولذلك سميت نجمة فلكان بهذا الاسم ، فإن فلكان كما مر اسم جبل يثير النار ومعبره وبركان . والممودان يمتثل انطباقه على مريخ فإنه لا يتفك من قرين تقوم أشعنها عليه كالعمودين . والفيلق بمعنى المنطلق ينطبق على السيارة العظيمة التي حسبوا كونها بعد مريخ وتفسخت إلى قطع صغار دوارة أعنى بها عجيات المشتري ويؤخذ شرحها من فرة هذه المسألة والحاصل أنها قابلة للانطباق على سيارات شمسنا على النظام السابق المبين من أرضنا . ثم الزهرة ثم عطارد ثم فلكان ثم المريخ .. الخ ، الخ .

وبعض صاحب كتاب الهيئة على هذا النحو تأويله للعدد الذي جاء في الآية القرآنية مما يصح أن يحاط به عند التوسع في التفسير كما يسمى في تفصيل الشروح الوافية ولكنه يذكر على سبيل الرواية ولا يذكر على سبيل الحزم محكم القرآن في مسألة من المسائل ، وبخاصة ما كان لها عروة للمراجعة والمناقشة وتعدد الآراء ، ولا يحرص على روايته إلا لأن الصواب والخطأ في هذه التأويلات يدلان معاً على موقف القرآن الكريم في العلم عند المسلمين فلا حرج عندهم في دراسة النظريات العلمية ولاماع في ديمهم بمعهم أن يتقبلوها كأنها مطابقة لآيات التنزيل ..

وشبه هذا التأويل رجوع بعض المفسرين بالنظرية السديمية إلى آية الدخان في سورة فصلت :

﴿ ثُمَّ أَسْوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا

أَوْ كَرَّمًا قَالَتَا أَنْتِمَا طَائِعِينَ ﴿٦٦﴾ فَقَضَيْتُمْ سَنَعَكُمْ لَوَاتٍ فِي يَوْمَيْ وَأَوْحَى
 فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا ﴿٦٧﴾ (سورة صافات)

والنظرية السديمية فكرة قال بها سويد نيرج Swedenborg ثم فصلها
 لابلاس Laplace خلاصتها أن المنظومة الشمسية نشأت من السديم - أي من
 مادة غازية ملتهبة - بردت وتجمدت وألقت من جرمها الكبير أجزاء كثيرة فظهرت
 عنابر حول نفسها وحول الجرم الكبير بفعل الجاذبية والحركة المركزية ، وأن
 نشأة النجوم في السماء مماثلة لهذه النشأة وإن لم تكن من قبل المنظومات التي
 خلقها منظومتنا الشمسية ..

وهذه الفكرة شائعة وليست بفاطمة ، لأن العازات المطلقة لا تكون أشد حرارة
 من الأجرام المتجمعة ، إذ هي كلما انطلقت تسربت بها الحرارة في فضاء أوسع من
 حيز الكرة المتجمعة ، وليست حركة العازات بعد تجمعها موازنة للحركة التي
 تصورها أصحاب هذه النظرية ، فضلاً عما ظهر عن حقيقة السحب التي كانت
 تسمى سديما ثم تحققت أنها جماعات من النجوم تعد بمئات الملايين ، ولا يستطيع
 الت بقول جازم في النظرية السديمية قبل البت بقول حازم في أصل الأشعة الكونية
 وفي النجوم التي تنمجر لا تترادها وتكاثفها وتعاظم الضغط على داخلها واندفاعها
 إلى خارجها ، فرمما كانت السلم من مادة النجوم المصجرة ، أو كانت من تجمع
 الأشعة الكونية أو كان الفضاء هو مصدر هذه الحركات في أصولها عبد الذين يرون
 أن الفضاء والأثير شيء واحد ، وأيا كان مقطع القول في هذه المروص فلا يسهى أن
 يعدو بها فروضاً يتعارفها الثبوت والنقص على حسب الكشوف والمشاهدات التي
 تبشر أدواتها مع الزم ولا تزال اليوم في أولئها .

ويتمدادى الحكم على الماضي وعلى المستقبل في هذه المروص التي يتباعد بها
 الزم كما يتباعد بها المكان فلا يقين فيها على الحالين ولا جسم فيها بين رأيين ما اتسعت
 للتحلاف بين فرضين ..

ولا حرج على قاتل أن يقول في تقديره كما قال العالم المجتهد الشيخ طنطاوى

جوهرى وهو يصير الآية . هود شاهدوا من تلف العوالم اليوم ستين ألف عام نرى
لوجود من جديد ولا تزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب المرجعية في
غير هذا المكان . ورأوا أن من تلك العوالم ما هو في أول تكوينه ومنها ما مضى مراحل في
تكوينه ومنها ما قارب النمام وهي عوالم كعالمنا الشمسى الذى نحن فيه وسير لوجود
كما بررت شمسا وسياراتها وأرضها وكانت في الأصل دحناً ومستمر في التكوين
ومدتها بونان . ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون الوثائق عابدة الأمر أن نقول بونة
لبداية وبونة للنهاية ويكون هذا القول من الحمل العامة وفائدته أن التكوين لم يكن
في لحظة واحدة .

نقول لأخرج في هذه المروص والتقدير على قائل يقول بها وعبه عهدتها في
سبل اسحت عن الحقيقة . ولكن المخرج كل المخرج أن نرى أحد المروص النظرية
السديمية كأنها من دعائم الإيمان بآيات التبريل

ويكتفى من هذه الأمثلة مثل آخر له صفة تاريخية جغرافية جرى فيها التأويل نحو
هذا الجرى وان لم يرتق الأمر فيه إلى منزلة الظن العلوية أو أصول التكوين كعدد
السيارات أو النظرية السديمية وذلك تأويل فاضل من معلمى اريافه لقوله تعالى
في سورة الكهف من قصة ذى القربى

﴿ حَقَّقْ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي ظِلِّ حَيْثَ ﴾

(سورة الكهف)

فإن المعلم الناضل يذكر التوندرا Tundra ويقول أنها مياه موحلة تشغل
صيفاً الأجزاء السفلى من أحواض الأنهار أو بـ "lowlands" وأبـ "lowlands" ولها Lensa
بسيرها تستحيل شتاء إلى سهل واسع المدى من الجليد ..

ثم يقول في تفسير الآية : « أى في عبر ماؤها موحل أو به طين أسود أو به طين
كثير الرخوة وليس يعرف في الأقاليم ماشأ الماء فيها هكذا إلا منطقة التوندرا صيفاً
ولا ما شأ الانساع فيها إلى حد انطاق الأفق على سياتها حتى يلوح للنظر احتماء
لشمس بعدها لا هي ادن ما الذى يجمع عن إرادة القرآن لها ٢ . إذا تقرر الأحـ

مدلك كان ذو القربى يرناد سيريا وكان في الشرق من محرى لنا الأسفل وسيأتيد
 ذلك أيضاً مما باتى في القصص معه إذ نقول الجغرافيا الرياضية بطول نهار الصيف
 في نصف الكرة الشمالي مذكور منه بين ١٢ ساعة و ٢٤ ساعة في عروض المختلفة من
 خط الاستواء إلى الدائرة القطبية الشمالية وأطول النطاق ههنا أفريقيا إلى القطب
 ونقول جغرافيا الرياضية أيضاً أن النهار يزيد على أربع وعشرين ساعة في الأماكن
 التي عرضها شمال الدائرة القطبية الشمالية إذ يكون النهار شهراً واحداً في عرض ٢٣
 ٦٧ وشهرين في عرض ٥١ ٦٩ وثلاثة أشهر في عرض ٤٠ ٧٣ درجة وستة أشهر في
 القطب . ونقول الجغرافيا السياسية أن هناك عدداً مأخوذة في شمال الدائرة القطبية
 الشمالية وهي الشرق من منطقة التويلندا في سيريا مثل فركوبسك - Verkko
 Yanak عرض ٦٨ درجة شمالاً يكون النهار فيها فوق الشهرين وأقل من الثلاثة
 ويقول القرآن الكريم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّهْرِ جَعَدَهَا تَطْلُعَ عَنْ قَوْمِ
 لَّ تَجْعَلَ لَّهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ ﴿١﴾ بمعنى بلغ مكاننا تشرق الشمس
 عليه فوجدتها تظهر على قوم ليس لهم من وراءها ليل . والذي يجعلهم أفهم احتمال
 الآية لهذا المعنى ما يأتي من النقطة : أولاً ، التعبير بكلمة « وجد » الذي يشعر
 بما بعد حكاية الحال أو وصف ما شاهدته في ذلك المكان ثانياً ، أن من معنى
 « دون » وراء وبعد . ثالثاً : أن القرآن خبر عن الليل بأنه لباس ، في قوله تعالى :
 ﴿ وَحَمَلَتْهُ أَلِيلُ لَيْسَ ﴾ وخبر عنه بأنه ينعش بالنهار التصاق الجلد باللحم على
 قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْيَلُ يُسَلِّمُهُمُ النَّهَارُ ﴾ وخبر عنه بأنه يغطي ويستر صوء
 الشمس بقوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ وخبر بأنه جمع النهار بقوله تعالى :
 « يطلب حثيثاً » . وبأنه يلف على النهار بقوله تعالى : ﴿ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى
 أَنْهَارٍ ﴾ هذه المعاني المجتمعة وجهت نفسي إلى الاعتقاد بإرادة القرآن الكريم
 لهذه الحقيقة ، ولولا العلم لما تجمعت عناصر هذا المعنى ، وبالعلم تحققت آيات
 القرآن العظيم وبه يتحقق أيضاً ما خفي من معانيه (١) ..

(١) بحث في إشارة ابن كرمين . رسالة لطيفة للأستاذ محمد أمين النيك معلم الرياضيات

ونقول إن هذا التفسير اجتهاد حسن من المؤلف لامانع من نظره و لتوقيف به
 دون الحرم نابيهين فلما تنقرو هذا التفسير يقباً إذا عرف ذو القربين وعرفت رحلاته
 في هذه الوجهه أو في غيرها . والكاتب الباحث يذكر أن لقربين مختلف فيه بين أن
 يكون الاسكندر المقدوني . أو ملكاً من ملوك حمير . وعديداً به قرب من أن يكون
 ملكاً له سلطان على اليمن وعلى وادي النهرين فهو من اللذين كسوتوا اليمن ومن
 لاسى لتاح دى القربين أحدهما إلى الامام . والآخر إلى الخلف كعص ملوك العراق
 الأقدمين ولكنه عرص قد تنقصه فروص أخرى تأتي بها الكشوف الأثرية مع الزمن
 فلا يجوز القطع به وارام المسلمين أن ينقلوه كما ينقلون حقائق لشربين وأنه من
 أحسن آداب القرآن العلمية أن يذكر اجتهاد أمثال هذا التفسير ويتبعه تنقيص ااعم
 إلى الله والله أعلم . ووفق كل دى علم عليهم . إن لعرب الكريم يقول . إن
 الكتاب م يفرط في شئ كما جاء في سورة الامام

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِثَ لَكُمْ مِثْلُهَا فِي الْكِتَابِ ﴾
 (سورة الأنعام)

وأكثر المفسرين على أن الكتاب هنا هو اللوح المصنوع كما جاء في تفسير ابن كثير
 وأي الجميع عنهم عند الله ولا يسى واحدا من جميعها من ررقه وتدييره سوء كان
 برياً أو بحرئاً مخلوقه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا ﴾
 (سورة هود)

ولكن بعض المفسرين - ومنهم الرازي - يصر الكتاب هنا والمرآن الكريم .
 ولأراخ بين القويين و تأويل المقصود باشتال الكتاب على كل شئ . فهم يقولون أنه
 يهدي الإنسان إلى كل شئ يحتاج إليه في دبه ودسائه ومنه طب ااعم والقررة
 والعصيلة . ولا يقول أحد أن الكتاب يشتمل على كل شئ تفصيلاً بل إحالاً في اعم
 الله لايعمه اساس إلا يتفادار من فهم من ذلك الإجمال معنى فهو مستول اعم

لا يسأل عنه أحد غيره إلا محنته وبرهانه . ونعم الإجماع الذي لا راع فيه على الأمر
بالعلم والتواحدة على التعريف فيه .

وأيا كان توجه في هذه المسألة . فالنظام المستقيم فيها بين والاحتداد فيها
ينتهي إلى حد قائم لاشبهة عليه . فإن الإسلام بأبى كل علم يختلط بأسرار الكهانة
والكهنة فكل علم يؤمر به المسلم فهو علم صراح بغير حجاب ولا تحجيم . يتهدى إليه
كل مأمور بالنظر قادر عليه ..

الفن الجميل

كثرة الأنصاب والمنازل في المعاد والبع ليست بالمقاييس الصحيح لصيب
الصواب الحميلة من الدين الذي يدان به في الممد أو البعثة لأن المعاد الوشية كانت
تسبح للأنصاب والمنازل وليست بالممدوح الصالح للأديان في الهداية إلى معنى الجمال
والخص على الصواب الحميلة . وهي في حملتها لا تغلو من العبادات لبسعة واشعتر
القيحة والعقائد التي لا تجمع والجمال في شعور واحد

في يقاس بصيب الفن الجميل من الدين نظرة الدين إلى الحياة
فلا يقال عن دين أنه يعنى الصواب الحميلة أو ينقل أحياءها إذا كانت له نظرة
درية إلى حياة وكان ينظر إليها كأها وصمة درية . وإلى الحسد ومتاعه كأها رحى
مردود وانحرف بالإنسان عن عالم الروح والكمال

ولا يقال عن دين أنه يردى الفن الجميل إذا كان الجمال من مطالبه وكنت
نعمه الحياة مفصلة في شرعة المتدين به بل واجبة عليه

والإسلام بين الأديان قد ائرد يقبول نعمه الحياة وتركيبها وخص عيبها
وحساسها من نعمه الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها وعيره من لأديان
بين اثنين فأما انكسوت عن التحريم والإيجاب معا أو التصريح انقطع بالتحريم
والثائب

أما الإسلام فانه محل الزينة ويرجر من بحرهما ، وبصف الله بالجمال وبحسب
الجمال من آيات قدرته وسوايح نعمته على عباده
ففي خلق الأرض زينة وفي خلق السماء زينة .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿٧﴾

(سورة الكهف)

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ١٦ ﴾

(سورة الحجر)

• • •

ومن حقائق الله جمال بطله الإنسان كما يطلب الناس والمتعة

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ (سورة ق)

وكل من حرم هذه الزينة على الناس فهو آثم لا يقصو في تحريمه بأمر الدين

﴿ وَلَكَرَّ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ١ ﴾ (سورة المحل)

• • •

وإزينة والعادة تنفقد ولا تفرق بل تحب الزينة في محراب العادة كأنها قربان

إلى الله حيث لا قربان في الإسلام

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

(سورة الأعراف)

• • •

﴿ يَذَرِيْنَ آدَمَ حُذُوأً رَبَّنَا عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (سورة الأعراف)

• • •

والسنة السوية فيما روى عنه عليه السلام وفيما أثر عن حياته مرددة كلها لما في الآيات القرآنية في تركية النعمة وإراحة الزينة والنهي عن تحريم الأخذ بصيب من الحياة الدني والتمتع لله بتعظيم محاسن خلقه وحة آيات الجمال في أرضه ومباه

قال عليه السلام : إن الله جميل يحب الجمال ..

وقال فيما ورد من تفسير قوله تعالى :

﴿ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ (سورة طه)

أنه هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن .

وقال : من له شعر فليكرمه..

وقال . إن الله يحب كل حديد الريح كل حديد الثياب .

وأجابه بعض أصحابه أنه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له : لا تفعل صم وأفطر وقم ومن كان جسده عليك حقاً ..»

وقد تواترت أمثال هذه الأحاديث في الأثر واحتضت فيها الروايات ولكنها لم تختص قط في معناها ومؤداها ، لأن حياة النبي الكريم كلها مصداق للإيمان بحق الجسد مع حق الروح ..

والدين الذي يظفر إلى الحياة والجمال هذه الطفرة القوية السوية لا يسوع لأحد أن يظفر به تحريماً شئاً من العمل الجميل أو سبياً عن شئ يعمل الحياة ويحس وقفاً في لأبصار والأسباع . وما سبقت الطنة إلى هذا الخطأ لتشديد الإسلام في مع عدة الأوثان ومع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والأصنام ، ولم ترد في الكتاب كلمة تهى من عمل من أعمال العمل الجميل ، ولم يثبت عن النبي عليه السلام قول قاطع في تحريم صيغة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تحشى منه الكسبة إليه في نفوس أتباعها ومن يقتنون بجهالتها ..

روى لأزرقي في أخبار مكة : « أن النبي عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لنسبة بن عثماني يا شبعة امسح كل صورة فيه إلا ما تحت يدي قال فرفع يده عن عيسى ابن مريم وأمه ..

وهذه الرواية يقابلها أن النبي عليه السلام لم يدخل الكعبة إلا بعد أن أزيلت منها الصور لقائمة فيها أو المنقوشة عليها ، فإن حقت الرواية وصحح أنه عليه السلام قد ترك بعض الصور وأمر ببرالة بعضها فليس في ذلك تحريم للصورة على إطلاقها ، وإن حقت الرواية الأخرى وكانت الصور قد أزيلت من الكعبة بأمره عليه السلام قبل دحره إليها فما فعله صلوات الله عليه فهو الحكمة التي تقضي بها ضرورة الحيلة في أوائل كل دعوة تحشى فيها الكسبة إلى ما سلفها من دعوات معطوبة . وما من دعوة في عصرها هذا تستعنى عن مثل هذه الحيلة الواجبة فيما تحلله من بكسات العهود الصعبة

على أن الخلاف في صور الكعبة ينقطع بما لاشك فيه من آيات القرآن ، وذلك بما ورد من بيان نعمة الله على سليمان عليه السلام ولا إنكار عليه بل هو موجب لشكر من القوم جميعاً كما جاء في هذه الآيات

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَنْشِيلٍ وَحَصَانٍ كَالْخَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ۚ اَعْمَلُوا ذَاكَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة سبأ)

والقاعدة العامة في الإسلام أنه لا تحرم حيث لا ضرر ولا حشة من الضرر فأما مع منفعة المحققة فلا تحرم ولا جوار للتحريم ، لأنه فوائد للمصلحة وهي عن المباح.

وعم تناول البحث في موضوع التصوير من المحدثين صاحب مجلة «الهداية» الأستاذ عبد العزيز جابوش حيث يقول «إنه ليس من المراد تعميم التحريم في كل زمان أو كل أمة فإنه لا معنى لذلك المحرم في أمس حانب العبادة والتعظيم للدين «حتس الله بها» وكيف يحرم التصوير مطلقاً مع أنه قد يكون سبباً في حفظ حقوق شرعية كما هو الشأن في صور العرق والأموال المجهولين التي تعرضها الحكومة على الملأ حتى يعرفهم ذويهم فتقوم هناك أحكام المواريث وأحكام الروحية وحلول «ديون المصلحة» ونحو ذلك وقد يكون التصوير سبباً في تحديد الأمة من النصوص «الاحتالين» والنصايين المستترين عن أعين الحكومة ، فتشر صورهم للملأ حتى يقتعوا أثرهم ويرشدو الحكومة إلى معاهدتهم ، ومن الصور ما تعرف به أسرار حكم الله تعالى في حقيقته كما في صور الحيوانات وأجزائها التي تحتويها كتب التاريخ الطبيعي وانتشريح ، كما أنه من صروب التصوير ما يساعد على علاج المرضى بعمل مائة أو لمصابين ببنادق الرصاص ونحوها كالتصوير بأشعة رنتجن الشهيرة . ومن القواعد الأصولية الشرعية إن للمواثيل أحكام العايات والمقاصد . فإذا كانت الصور تنوقف عليها بعض أحكام شرعية أو معالجات طيبة أو كشف مسائل علمية كان اتخاذها ولاشك من الموعوب به شرعاً وإن كانت لمجرد الزينة واللهو المباح كان اتخاذها مباحاً فأما إذا كانت تتحد للتعظيم والعبادة والترك ونحو ذلك فهي حرام قطعاً معذب صانعها ومعذب متخذها ..»

ولا نعم أحداً من المسلمين حاصتهم وعامتهم يزوى وجهه أمام تحفة من تحف
الفن حيث تؤمس الكسوة إلى العبادات الوثنية ، وقد كان الشيخ محمد عبده - الإمام
المصلح المختد - يروى معاهد الفن ويكتب عنها ويستحسن حفظ آثارها البادرة
وتحفظها العبيسة لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير حفايا النفس الإنسانية ، وبما كتبه
في ذلك فصل من فصول الرحلات تنويقه في تلك الرحلات نشرته مجلة «المارة» عن
دور الصور والآثار في جريرة صقاية يقول فيه

« وهؤلاء القوم حرص عرب على حفظ الصور المرسومة على الورق ويوجد في
در الآثار عند الأمم الكبرى مالا يوجد عند الأمم الصغرى كالصغرى مثلاً يحفظون
تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك عرب ، حتى ن. لقصة
الواحدة من رسم روفائيل مثلاً ربما تساوى مائتين من الآلاف في بعض المتاحف ولا
يملك معرفة القيمة بالتحقيق ، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم هذه النقوش
وعند ما أنف من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر وكذلك الحال في النماثيل ، وكما قدم
المترجم من ذلك كان أعلى قيمة وكان القوم عليه أشد حرصاً هل تدري ماذا ؟

إذا كنت تدري السبب في حفظ سلعك للشعر وصسطه في دواوينه والمباغة في
تحريره ، خصوصاً شعر الخاهلية وما عى الأوتل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك
أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصوغات من الرسوم والنماثيل ، فإن
الرسم صرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر صرب من الرسم لدى يسمع
ولا يرى إن هذه الرسوم والنماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون
المختلفة ومن أحوال الخباعات في المواقع المتنوعة ، ما نستحق به أن نسمى ديوان
الميثاق والأحوال البشرية ، ويصورون الإنسان أو الحيوان في حالة الفرح والرمي
والطمأنينة والتسليم ، فهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لايسهل عليك
تمييز بعضها من بعض ، ولكنك نظري في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً ،
ويصورونه مثلاً في حالة الفرح والفرح والخوف والخشبة ، والفرح والفرح مختلفان في
المدى ولم أجمعها هنا طمعاً في جمع عيين في سطر واحد ، بل لأنها مختلفة
حقيقة ولكنك ربما تنعصر ذهنك لتحديد الفرق بينها وبين الخوف والخشبة ولا
يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفرح ومتى يكون الخوف ، وما الهبة التي يكون

عليها الشخص في هذه الحال أو تلك فأما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر ساكت فإنت تحد الحقيقة باردة لك تمنع بها نفسك كما يتلدد بالنظر فيها حسك إذا نرعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرفة في قولك «رأيت أسداً» تريد رجلاً شجاعاً فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تحد الأسد رجلاً أو لرجل أسداً . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة وشكر لصاحب الصعة على الإبداع فيها . إن كنت فهمت من هنا شيئاً فذلك يعني ، وأما إذا لم تفهم فليس عندي وقت لتصححك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللعوين أو الرسامين أو الشعراء للمقربين يوضح لك ما عصى عليك إذا كان ذلك من درعه

ثم يستطرد الأستاذ الإمام إلى الحكم الشرعي في هذه الصور والتجانب فيقول : «ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي : ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيات البشر في اعدائهم النفسية أو أوصاعهم الحسية . هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو ممدوب أو واجب ؟ فأقول لك إن الراسم قد رسم والفائدة محقة لا نزاع فيها ، ومعنى العادة وتعميم المثال أو الصورة قد يعنى من الأدهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتي وهو يحبك مشافهة . فإذا أوردت عليه حديث «إن أشد الناس عداوا يوم القيامة المصورون» أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فإحدى يعلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام ابوتية وكانت الصور تتحد في ذلك العهد بين الأول للهو والثاني التبرك بمنا من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يعصه الدين والثاني مما جاءه الإسلام فهو ، والمصور في الخليل شاغل عن الله أو يمثل للإشراك به . فإذا ران هذا إمارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير البيات وبشجر في المصوغات ، وقد صبح ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمه أحد من العلماء مع أن الفائدة في رسم المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة الصور لما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكره» .

• • •

على أن شبه العادة الوثنية تزول عند النظر إلى هي السباع ، أو هي العناء والموسيقى . لأنه من القبول التي لا عار عليها ولا تحرم لشيء منها إلا ما كان يمتزجاً بالخلاعة أو مثبِّراً للشهوات فالتحريم هنا لا يمحى العن الحميل بل يعم الخلاعة والشهوة وكل ما يمتزج بالمحظورات على اختلافها ، وقد يحرم اللباس الخفيف أو الحديث الخفيف فلا يقال إن هذا التحريم يمحى الكساء أو يمحى الكلام ، ولكنه يمحى ما هو مجموع ويبيح ما عداه ..

والمسموع مأمورون بترتيل القرآن لا يرون في قدامته ما يبههم أن يقرأوه ويسمعه مرتلاً في المساجد والمحاريب ، بل يرون في ذلك معاوناً على تلاوة وطمأنينة الإجماع إليه ، وأخرى أن يكون ذلك الشأن ما يطرق الأسباع مسموعاً من سائر الكلام ..

ولو كان في العناء ما يكره أو يعاب لكان أولى الناس أن يمحى رجل كعمر بن الخطاب في صرامته وشدة على نفسه وعلى غيره في رعاية أحكام دينه ، ولكنه رضى الله عنه كان يبيع العناء ويدعو إليه ، ومن أحاراه في ذلك ماروده نائل مولى عثمان بن عفان قال : خرجت مع مولاى عثمان بن عفان في سفرة سافرهاها مع عمر في حج أو عمرة ، وكان عمر وعثمان واس عمر أيضاً ، وكنت واس عباس وابن الزبير في شأن معنا ، ومعنا رباح الهري فقلنا له ذات ليلة : أحد لنا قال مع عمر ؟ قلنا : أحد من هلك فاته . فحدثنا ، حتى إذا كان السحر قال له عمر : كف ههنا ساعة ذكر . فلما كانت الليلة الثانية قلنا : يا رباح . انصب لنا نصب العرب ، قال مع عمر ؟ . فقلنا : قلنا بالأمس . إن هلك فاته . فنصب لنا نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر : ما قاله أمس . فلما كانت الليلة الثالثة قلنا له : يا رباح . عتانا عناه القيان . فقال مع عمر ؟ قلنا : إن هلك فاته . ففقي ، فوالله ما تركه أن قال له : كف . فان هذا بعمر القنوب :

وحاء قوم فقالوا : إن لنا إماماً يصلى بنا العصر ثم يعي نأيات فقام معهم إلى منزله واستشهده تلك الأيات التالية :

وفؤادى كلما نيته عاد في اللذات يغى نبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا في تماديه قد يرح في
بقرين السوء ما هذا الصا؟ في العمر كذا و اللعب
وشباب بان منى ومضى قبل أن أدرك منه أرى
مضى لا كنت ولا كان الهوى اتى المولى وحاق ودره

فجعل عمر يقول مضى لا كنت ولا كان الهوى ، وصار يكي ثم قال من
كان معكم معياً فمعن هكذا

وروى عنه أنه خرج للحج ومعه حوات من حبير وأبو عبيدة بن الخراح وعبد
الرحمن بن عوف فسأل القوم حواتا أن يعنى من شعر صرار فقال عمر دعوا
عبد الله فمعن من بيت فؤاده قال حوات . فما زلت أعيبهم حتى كان الشعر
فقال عمر ارفع بسائك باحوت .. فقد أسحرنا

ومن قال إن ابن الخطيب كان أشد الخلفاء صرامة في النهى عن المخطور لم يبلغ
في وصفه ولم يقل عنه ما يأناه أو يأناه له عاروه ومحوه ، وما هو ذا يستمع إلى اعاء
بالشعر فيستمع إلى عين من أعم الفنون الحميلة بين الناس ، ولا بكر لعاء لداته
ولا لشعر لدته ، وإنما يكرها إذا اشتتلا على هو ويسر القلوب كما كان

ولعل خاطراً يحظر على البال في أمر الشعر لما ورد عن الشعراء في القرن لكرم
واسم بينهم العادون وفي كل واد يهيمون

ولكن هذه الصفة إنما قبلت في الرد على المشركين الذين كانوا يقولون عن النبي
عنه السلام تارة إنه ساحر ، وتارة إنه شاعر ، ههنا يباد للفرق بين النبوة والشعر
وبين الكلام لدى يهدى إلى الرشده والكلام الذى سمعه العواية ، والروح إلى لآية
يدل على الشعراء المقصودين تلك الصفة فلا يوصف به شاعر مؤمن بعين
لصاحات ..

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغُلُوبُ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾
(سورة الشعراء)

وقد حدث عبد نزول هذه الآية كما روى أبو الحسن مولى نعيم الداري - أن
حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك جاءوا إلى رسول الله وهم
يكونون فقالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية إن شعراء .. فتلا النبي صلى الله
عليه وسلم «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»

سيس الشعر مية عنه لأنه شعر ولا لأنه كلام موزون ، إذ قد يفتق النور لبعض
آيات الكتاب كما جاء في تفسير روح المعاني للسيد محمود الأوسى مسبوفاً إلى بعض
المتأولين إذ يقول : لهم تأملوا عليه ما جاء في القرآن مما يكون موزوناً بأدنى تصرف
كقوله تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ (سورة الاسراء)

ويكون بهذا الاعتبار شطراً من الطويل ، وكقوله سبحانه

﴿إِنْ قُلْتُمْ كَانَ مِنْ قَسْرٍ مُؤْمِنٍ﴾ (سورة انفصص)

ويكون من المديد ، وكقوله عز وجل :

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَنَكِبَهُمْ﴾ (سورة الأحقاف)

ويكون من البسيط وقوله تبارك وتعالى :

﴿أَلَا نَعِدُكَ لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ (سورة هود)

ويكون من الوافر . وقوله جل وعلا :

﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة الاحزاب)

ويكون من الكامل ، إلى غير ذلك مما استخرجوه من سائر البحور وقد
استخرجوا منه ما يشبه البيت التام كقوله تعالى :

﴿وَيُخْزِئُهُمْ وَيَصْرَكُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة التوبة)

فبمس الورن الذى يتفق أن يكون فى الكلام المرسل مبيهاً عنه وليس الشعر مبيهاً عنه ، لأنه وزن منطوق ، وإنما المكر فى الشعر ما يسكر فى كل كلام يحوى بالسوء أو يعزى به ويستندرح الهوس إليه . وما عدا ذلك من الشعر فقد كان يسمعه النبي عليه السلام ويحير عليه ، وكان يحفظه الخلفاء الراشدين وأئمة المسلمين ، وقد نظمت أحكام لفقه الإسلامى فى مجوز موزونة كما نظمت متون العلم والذمة فى هذه البحور ، فلا حرج فى هذا انفس الحميل ما لم يكن حرجاً يعرض للعون وغيره من

ويقاس الحديث من العون التى أبحث فى صدر الإسلام ، فاستحدثت من قبلها بعد ذلك فهو متاح مثلها ، وما لم يكن معهوداً يومئذ فالقول فيه على حكم الضرورة واسعة واحتساب الضرر والفتنة ، يدح ما تدعو إليه الضرورة ولا صرر به ويحظر ما يحشى منه الضرر ولا حاجة إليه ولا مسوع لوجوده ، وقد حدث مثلاً فى عهد لبي عبيد السلام أنه شهد رعى احشة - أى رقصها القوم - وشهدته معه السيدة عائشة رضى الله عنها لما كان من قبل هذه المناظر العامة فلا حرج عليه .

• • •

وموضع المراجعة فى من التثنية الحديث ما ورد فى القرآن الكريم من سبه امرأة أن تخرج ترحح لدهلية وأن تبدى ربتها للبراء إلا ما ظهر منها ، وقد أسهت كتب التفسير فى بيان المقصود مما ظهر من الرتبة ، وتخصها بالإدم السق فقال « إلا ما ظهر منها أى ما جرت العادة والعادة على ظهوره وهو الوجه ولكنما ولقدمان فى ستره حرج بين ، فامرأة لا تحد بدأ من مراولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والكاح ونصطر إلى المشى فى انطرفت وظهور قديمها وخاصة الفقيرات مهن » ..

وفى تفسير الحافظ بن كثير حديث مروع إلى السيدة عائشة رضى الله عنها قالت .

« يا أسماء ست أبى بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رفاق فأعرض عنها وقال يا أسماء إن امرأة إذا لمعت الخيصر لم يعلم أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه » .

والمصق عليه أن المرأة لا يباح لها أن تدي ربتها إلا للضرورة مع أن الصرر
ولمسة ، فإذا ثبت ضرورة لظهورها في حالة من الحالات عتبع فيها الفتنه ويؤم
فيها الصرر فحكم الشرع في هذه الحالة معلوم لا خلاف عليه

وليس من الحق أن في التمثيل يصيق بأباح القول من الشريعة الإسلامية ،
وبنه لا يحيا ولا يزدهر غير ترخص فيها وخروج عنها فإن تاريخ التمثيل حديث
يشهد بمخالفة هذا الزعم لتحقيق الواقعة لأن التمثيل قد عاد إلى الحياة وما وادهر
في القرن السابع عشر يوم كانت أرباب النساء في أوروبا لا تدي من المرأة غير الوجه
والكفين ، وقد تمجب الكمين بالقماز أو الأكمام الطوال ، وكانت ملابس المرأة
يومئذ كملايس القرون الوسطى تفيض حول وسطها حتى تسبق قوامها ، وري تعذر
عندهم في إنان يقطة التمثيل أن تظهر المرأة على المسرح لجلهها بالقراءة وعجدها عن
الخط واتفهم عن الملص على مقربة منها ، وأن لها من مباحات الإسلام رحصة أيسر
من هذه الرحصة ومخاللا أرحب من هذا المبال .

وربما صاقت بالتمثيل عقيدة تعلم أباها بيد الحياة والحذر من اسطر في حكمه
التحريم والتجويل . أما الدين الذي يعلم من يدين به أن يحب الحياة وأن يحكمكم في
فكره فلا خوف منه على هذا الفن أو على سواه من فنون الحياة والخيال .

المُعجزة

يروى عن « بابلون بونايرت » أنه سأل العالم الفلكي المشهور « لابلاس » أين تجد مكان العناية الإلهية في نظام السماوات ؟ فأجابه « لابلاس » : لست أدرى مكاناً ، يسمى العناية الإلهية في ذلك النظام يا صاحب الخللة

يريد لعالم الفلكي أنه يستطيع أن يفسر دوران الأفلak بقوانين الحركة وخصائص المادة الطبيعية ولا حاجة عنده بعد ذلك إلى تفسير

وغير هذا الخواص كان أخرى رجل في علم « لابلاس » ، لأن العالم أخرى ' يعرف موضع العجب من هذه المشاهدات المألوفة ، فليست أفتة ها عما يصح أن يطل العجب منها ولو تابعت أمامه ألوفاً من المرات بعد ألوف

تري لو كان « لابلاس » في كون آخر وتحدث إليه أحد الخرجين من كون هذا عن دوران الكواكب على هذا النظام وخصائص المادة على هذه الوثيرة - أتره كان يتوقع ما يحدثه عنه قبل سماعه ويرى أنه شيء من قبيل تحصيل الحاصل وتكرير المعاد مستغنى عن الشرح والسؤال ؟ ..

تري لو قبل بذلك العالم الفلكي في أوائل الأزل أن يصور على الخريطة حركة قاعة تنظيم العلك في دورانه وحواده ودواحه أكان يرتجل هذه الصورة ارجحاً ولا يتردد فيها ويرى شئ القروض والتفديرات ..

نظام العلك مشاهدات متكررة وليس بالمستلزمات انطفية لو لم تكن هناك قدرة تستمرها وتختارها لتكون على هذا النحو ولا تكون على سواه

ن عقول تستلزم أن الأصغر والأكبر من الأشياء لا يتساويان ، ولكنها لا تستلزم أن تأتي الحركة من الحرارة أو تأتي الحرارة من الحركة أو تهمي المتحركات دائرة في بعض الأحوال وساكنة في غيرها من الأحوال

هذه مشاهدات وليست معطرمات ولا مدييات ، وكل ما يحدث على صورة
مها ولا يحدث على صورة أخرى فهو محتاح إلى التفسير غير مستغن نفسه عن الفهم
والتعليل ..

وعن مصححك من الطفل الذى نسأله لماذا يكسر الإباء ؟ فيقول لأنه
وقع ، وتسأله لماذا يكسر إذا وقع ؟ . فيقول هكذا ولا يكلف عقله سؤالاً
بعد هذا الجواب ..

« وهكذا » هو جواب « لانيلاس » في محضوله لسؤال نابليون

هل من الحتم أن يكسر الإباء إذا وقع ؟ . وهل من الحتم أن يدور الكوكب إذا
تحرك وانجذب ؟ .. وهل من الحتم مرة أخرى إذا دار أن يتركب من دوراته نظام وأن
نشأ في هذا النظام حياة ؟ ..

هكذا ولا شيء غير هكذا في رأى علامة الفلك الكبير ، وعلامة الحدث الكبير
ها هنا طعن صعب يسعى عن تفسير كسر الإباء بإعادة كلمة واحدة هي التكسير
لماذا يدور الفلك هذا الدوران ؟ ..

لأنه يدور هذا الدوران ، ولأنه أن يدور هذا الدوران . ولا سبب لذلك إلا
لأنني رأيته يدور هذا الدوران ..

ومن قل هذا فهو هازل يستخف بالأعجوبة التي أمام عييه مجرد كونه أمام
عييه ، كأنه يريد أن تكون الأعجوبة مما لا يراه ولا يراه إنسان

وإن أجهل الجهلاء يتعلم من القرآن الكريم فيها أعمق من فهم « لانيلاس »
وموقفاً أمام مشهد الكون أصدق من موقفه المخلود فإنه يتعلم من كتابه أن المعجزة
قائمة حواليه حيثما جال بعينه ، ويؤمن ..

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآفَاقِ اللَّيْلِ تَجْرِي فِي
الْبَحْرِ وَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا يَأْتِيَنَّكَ لِقَوْمٌ يَقُولُونَ ﴿ ١٦١ ﴾ (سورة البقرة)

فكل ما يراه ويكرر رؤيته فهو معجزة تدعو إلى العجب
ولكنها المعجزة التي يعمل العقل لهماها وليست هي المعجزة التي سطر عمل
العقول ..

والإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حينما نظر وليس بدين المعجزات التي
يكف العقل عن الرؤية وتصطوره بالإحجام القاهر إلى التسليم
وعليا أن يدرك المعجزة معجزتان كي يطلب المعجزة التي يسعى أن يطلب .
وتتبع من طلب المعجزة التي لا تحدى أحداً من المقلد
فالمعجزة التي تنجى إلى العقل موحودة يلتقي بها من يريد بها حينما التفت إليها .
ولكنها غير المعجزة التي تقع من لا يقنع بتعكيره . ومن لم يقنع بتعكيره فلن تهديه
المعجزة من صلال

والإسلام دين متناسق مستجيب للفهم والموازنة بين الأمور . فهو دين
المعجزات في كل شيء ، ولكنه ليس بدين المعجزة التي تعجم العقل ولا تقهقه .
لأنه دين العقل ... والتعكير مريضة فيه ..

ويؤمن المسلم بالوحي الكوني أشد من إيمان الدعوة إلى تقرير تلك الوحيات
باسم النعم المعصية أو العلوم التحريية . لأنه يؤمن بأن الوحيات من الله في خلقه .
﴿ قُلْ نَحْمَدُكَ لِسْمِ اللَّهِ نَسُبُكَ ١٦٢ ﴾ (سورة طه)

ولكنه يؤمن كذلك بإمكان المعجزة لأنها ليست بأعجب مما هو حادث مشاهد
أمام الأنصار والصائر ، وليس هي محتاجة إلى فترة أعظم من القدرة التي تشهد
من مدائنها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة وقد تسمى المعجزات في عرف
المسلم بخوارق العادات فلا يجوز لأحد أن يكفرها لأنها تعودنا بما علمناه في هذا
العصر على الأقل أم أكثيرة كانت في تقدير الأقدمين من خوارق العادات وهي اليوم

من ممكنات المتواترة ، وما جار فيها تعلمه يجوز فيما يحمله وهو أكثر من المعلوم لنا
الآن بكثير ..

فما كان من حوارق العادات عند الأقدمين أن تلغ الحركة ما تبليه من السرعة و
تجاربنا العصرية ، وأن يبلغ المكان ما يبلغه من صعر الأمد في كثير من تلك التجارب
الخصومة فأصبح بعد من السرعة المحسوسة ما يزيد على عشرات الملايين من
الأميال في الثانية الواحدة ، وعصر من المكان ما يقل عن جزء من مليون من القيراط
تعيش فيه الأجسام والخلايا الحية وتنمو منه جمهرة الخلائق وزيوت الأهلak
والأجرام ، وأصبح القول أن هذا الحدث يحدث في جزء من ألف جزء من ثانية
ويشتر على آلاف من الفصاء تحسب بالآلاف الألوف من الأمال في الجهات الأربع ،
وقد كان هذا مستجيلا في رأى الملهودين من عداد العادات ومكرى الخروق فيما
تعوده ، وبعضهم معدودون من الفلاسفة المكررين ، وأصبح مهم يديهة وأسلم
مهم تقديراً حاداً يؤس بالمحزنة ويؤس معها نغمايا الخلق وأسرار الحياة وسبع
التقدير والاحتال لكثير من العرائب والطوارق والمشتات في حكم الواقع والعبث
فإن العقل الإنساني لا يصاب بأفة أصر له من الممود على صورة واحدة يتبع عبده
كل ما عداها ، فاما أن تكون الأشياء عبده كما تعودها وكرر مشاهدتها وإنما أن
تحسب عنده في عداد المستحيلات ، وأدى من هذا العقل إلى صحة الطر عقل
يتفتح لاحتال وجود الأشياء على صور شتى لا يحصرها المحسوس والماولوف .

فليس من المستحيل عقلا أن يتم في ثانية ما تعودنا أن يتم في عام ، ولا من
المستحيل عقلا أن يحدث في قيد الشعرة ما كنا نظر أنه لا يحدث في غير الآفاق
الفساح ، وكذلك لا يستحيل عقلا أن يعكس هذا يتم في الزمن الطويل والأمد
انصسح ما تعودنا أن نراه في الزمن القصير والأمد الصغير

ومن الأمثلة المقررة هذا الاحتمال أن نطر إلى الصور المتحركة كيف يبدو فيها
السدب بطيئاً في أيام وهو يرتفع أمامنا . يعاً في شحات ، وأن نطر إلى قوائم العرس
كيف يرتفع الحافر من الأرض فيستغرق من الوقت على اللوحة البيضاء مثل ما
يستغرق انحدوا إلى نهاية المصار . وإنما يستعبد من هذا النظر أن يحدد العقل من

الحس للمشاهد درماً يتعلم منه أن اختلاف وقوع الحادث الواحد في الزمان والمكان شيء والقول باستحالة وقوعه في غير هيئة واحدة شيء آخر..

فلا استحالة في حوارات العادات ، ومن قال باستحالتها لزمه الإثبات لأنه يدعى الاستحالة عقلاً بغير دليل ..

« وما من أحد يجزؤ . مثلاً ، على أن يقول باسم العلم أن الإلهام بالعيب مستحيل . لأنه إذا حرم استحالة وحب عليه قبل ذلك أن يحرم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أبين أن يقرها معتمداً على حجة أو سد قويم . وبحسب على العالم الذي يحرم باستحالة الإلهام بالعيب أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن وعرف - من ثم - حقيقة المستقبل ، وبحسب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الإنسان والحيوان ، فما هي حقيقة الزمن ؟ هل هو موجود في الماضي والحاضر والمستقبل ، أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يروى ؟ وما هي هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى إحاطتها بالسعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة في هذه الأكوان ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد بعدم بعد إن لم يكن له وجود ؟ ..

« إن العالم الذي يحرم في قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذباً ويتم من عقل صديق لا يصلح للنظر في هذه الآفاق ، وإذا كنا لا نسجد وجود مستقبل حياً قطعاً به مستنداً إلى حجة أو بيئة فالعيب غير مستحسن ولعلم به لا يدخل في باب المصوغات أو غير المفولات ، وإذا كان عنصر العقل في هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز جداً أو حائر على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول » (١) ..

• • •

(١) راجع كتاب « مطلع النور » للمؤلف في نهاية فصل الطوائف والجماعات

وإذا كان العقل الإنساني لا يبي بالدليل المقنع وجود العقل الأبدى فليس به أن يحرم باستحالة شيء مما يستطيعه ذلك العقل الأبدى من العلم بالأبد كله أو من القدرة على الإبحاء به إلى من يشاء أو من القدرة على حوارق العادات . لأن الحوارق بالنسبة إليه كالعادات . ولأن التعبير عنده كالإشياء والإبداع . إذ ليست قدرته على تعبير ما حدث دون قدرته على الخلق لأول مرة في زمن بعيد أو زمن قريب والإسلام يصح المعجزة في موضعها من التكبير ومن الاعتقاد فهي ممكنة لا استحالة فيها على الخالق المدع لكل شيء . ولكنها لا تهدي من لم تكن له هدية من بصيرته واستقامه تفكيره .

فمن مرث به آيات الأرض والسماء ولم يظفر إليها ولم يعرف منها ديداً حبراً من دين الوثنية والتعطيل فلن تزيده الآية الحارقة إلا صلال على صلال .
وقد كان حوارق النبي عليه السلام لمن يطالبونه بالمعجزات كما جاء في القرآن الكريم من سورة الإسراء :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا ۖ ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْمٍ وَلَهَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ ۖ ۝ يَخْرُجُ مِنْهَا نَهْرٌ أَوْ تَنفِثُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي بِنَارٍ ۖ وَالْمَلِكُ قَبِيلًا ۖ ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا نَضِيبًا نَّفْرُقُهُ قُلْ مُبَشِّرُ رَّبِّ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ۝ وَمَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ۝ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا

عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٥﴾ قُلْ كُنْ لَإِلَهِهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٦﴾
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهْهُ الْهُتَدِ ۖ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدَ لَهُمْ
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴿٧﴾

وقى سورة الحجر :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١١﴾
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْحُورُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وقى سورة يونس :

﴿ وَيَقُولُونَ نَحْنُ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ الْكُتُبَ مِنْ رَبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْعِيبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ
مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْتَظِيرِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وقد بدأ سحر من الآيات من كان سحر من الحجة البينة كما جاء في قصة موسى
عليه السلام من سورة الزحرف :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ قَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

من جاء في الأنجيل من سيرة المسيح عليه السلام أن الكهنة عطلوا سمعهم
لإهلاك السيد المسيح حين علموا بآياته وأشفقوا أن تفقد الناس إلى الإيمان برسول الله .
فدعاهم إلى الكيد له ما كان أخرى أن يدعوهم إلى الاستماع له أو لتبصر عبه

وعقيدة المسلم في العيب وحيلة العيبات أنها شيء يعلمه الله ولا يعلمه الإنسان .
ولكنها لا تناقص العقل ولا تلغيه فليست هي ضد العقل لو عرفها وانكشف له
اعطاء عها ولكنها فوق كل عقل الإنسان . لأنه محدود وعالم العيب مطلق غير

محدود ..

ومن قال إنه يرفض الإيمان بعبر المخلود فكأنما يقول انه يرفض الإيمان بما يستحق الإيمان ، إذ لا إيمان على المدى محمود بأقصى دون مرتبة الكمال لدى لا تحصره المخلود .

إلا أن المارق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوقه وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة . فهو ضد العقل يلعبه ويعطله ويمنع أن يفكر فيه وفي سواء ، وما هو فوق النفس يطلق له المدى إلى غاية ذرعه ثم يقف حيث يسعى له الوقوف ، ويسعى به الوقوف وهو يفكر ويدير إذا كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه إلا بالإيمان ..

وحينما بلغ الإنسان هذا المبلغ فقد انتهى إليه بالعقل والإيمان على وفاق

أَسَامُ الْأَدْيَانِ

من العسير على الكثيرين من المتدينين المؤمنين بالآيآت أن يدركوا أساماً عقلياً تصحبهم الدين الذي يعتقدونه على سائر الأديان التي لا يعتقدونها ، وعادة ما عددهم من التعليل لهذا التخصيل أن يؤمنوا بهذه العقيدة لأنها عقيدة بيهم ولا يؤمنون بالعقائد الأخرى لأنها عقائد أسياء آخرين لا يؤمنون بهم ولا يقولون لها يكروهم بعد إيمانهم بآمئثالهم ، ولا يستطيعون أن يردوا هذا الإلكار إلى سبب معقول

وهذا العجز العقلي عن تعليل اختيارهم لبعض الأنبياء دون بعض يكاد أن يكون ضرورة لا محيص عنها يضطر إليها من يؤمن برسالة دون سائر الرسائل . فإن رسائل الأنبياء جميعاً لم تخلو من صفاتها ومسوعات الإيمان بها ، ولما نحصر لفصائل ومسوعات الإيمان في رسالة واحدة . مع تقادم الزمن وتفاوت الأمم والإيمان بوجود الله وهدايته للناس منذ تباث عقولهم وصبائرهم لقبول انشراح والمتقدمات ..

فالعجز العقلي عن تعليل الإيمان بالدين ضرورة ملازمة لتعكير المتدين الذي لا يعرف الحق في غير دين واحد كأنما كان الإله الهادي لعاده في عبة عنهم قبل أن يشرن ذلك الدين الوحيد بين ماسلف من الأديان

والمسلم له عصمة من عقيدته تحمي من ذلك العجز الذي يبيد العقل ويبعب العقيدة معاً ، فهو دين التعكير أمام الأديان الأخرى حيث يتعسر التعكير في أمثال هذه المواقف بين المتدينين ..

لأن المسلم يؤمن بجميع الرسائل التي ملعت قبل محمد عليه السلام ، ولا ينكر منها إلا ما بسحته الشرائع النبوية بعضها لاختلاف مقتضيات الزمن ، وما ينكره لعقل لما أصابه المتديون إليه من حرافتهم أو من أوشاب العادات التي احتلظت بقدا الوثنية والعقائد الخاطئية من جيل إلى جيل .

بدين المسلم رسالة نوح قل رسالة ابراهيم وسبه صلوات الله عليهم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ ابْدِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①
قَالَ يَنْقُومُ إِلَيَّ لَكُم بَدِيرٌ مِثِّي ② أَنْ أَعْدُوا اللَّهَ وَأَتَقُوهُ وَأَطِيعُوا ③ ﴾
(سورة نوح)

وبدين المسلم رسالات ابراهيم واليسر من بعده كما جاء في آيات متعددة من
سور الكتاب الكريم :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَاسْمِعُوا لِمَنْ يُحْكُمُ
وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا يُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مَسْلُومُونَ ④ ﴾
(سورة البقرة)

وفي سورة النساء

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا
إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ
وَسُلَيْمَانَ وَإِسْمَاعِيلَ وَدَاوُدَ وَيُوزَافَ ⑤ ﴾

وفي سورة يوسف

﴿ وَاتَّخَذْتُ مَلَائِكَةً لِيَّ بِي إِسْرَافِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَكَ
أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ آبَاسٍ
لَا تُسْكِرُونَ ⑥ ﴾

ومع إيمان المسلم برسالات هؤلاء الأبناء المرسلين يعنى أمامه باب التكبير
والاحتكام إلى العقل باعتقاده أن الأنبياء والمرسلين يتواصلون ويحق له التعبير بين
دعواتهم كما لها من حجة وما فيها من عموم الهداية على تعدد الأمم والأرمة

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَهَآ أَنبَا دَاوُدَ وَيُوسُفَ﴾ (سورة الاسراء)

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة البقرة)

وتملك المسلم حرية العقل بما يعلم من الرسائل والقصص التي لم تذكر بأسمائها في كتابه ، لأن رسل الله كثيرون .

﴿مِّنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (سورة الساء)

فالمسلم لا يسمعه أن يهمل عقله أمام الأدبان والرسالات كافة حين يوفق بين واجب الإيمان بها في أصولها وقواعدها وواجب الاعراض عما احتلط بها من أوشاب الخرافة أو الضلالة . لأن العقل هو مرجعه الأول في التوفيق بين هذين الوجهين . وهو مرجعه لتوحيد و تمحيص الرسائل التي لم يقصصها القرآن الكريم عليه . فلا عنى له عن التصكير فيها لفهم الصالح منها وغير الصالح والتغير بين ما يجوز رفضه وما لا يجوز ، حتى أن يكون من رسائل الهداية الإلهية فلا يستكره بعبودية أو عن غير هدى ..

وقد صدقت أم بعض الأنبياء وكذبت سورة محمد عليه السلام ولا حجة لها تجيب بها من يسألها إلا أن تقول إما صدقنا هؤلاء الأنبياء لأهم أسياناً ولم نصديق محمد لأنه ليس ببي عدنا فهم لا يعرفون بين الأنبياء بقداسة السيرة ولا بعظمة الأثر ولا بشيوع الهداية وكثرة المهتدين به ولا بعصيلة الهداية في آداب ومعايب . إذا ما من دارق من هذه الفوراق يمتلونه في تقديرهم هو خلق أن يسوع لهم تكذيب محمد عليه السلام مع من صدقهم كما وصفهم ونحدثوا عنهم في الكتب التي يعوبون عليها ..

فما جاء عن نوح عليه السلام في الإصحاح التاسع من سفر التكوين أنه « ابتدأ يكون فلاحاً وشرب من الخمر هسكر وتعري دافع خبائه فأبصر حاكم وكتخاب عورة

أيته وأخبر أخويه خارجاً فأخذ سام ورافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى
 ابوراء فلم يصرّا عورة أيهما قلما استتفظ بروج من حمرة علم ما فعل به انه الصغير
 فقال : ملعون كتمان عهد العييد يكون لأخوته ..

وحاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن لوط وبنتيه : فسكن في
 المغارة هو وبناته وقالت البكر للصغيرة أنوما قد شاح وليس في الأرض رجل يدخل
 علينا كمادة كل الأرض . فلم نسق أنانا حمراً ومصططح معه فحجي من أيما سلا
 فسقتا أباهما حمراً في تلك الليلة ودخلت الكر واصططجت مع أيما ولم يعلم
 باصططجعهما ولا بقيهما . وحدث في المد أن الكر قالت للصغيرة إلى قد اصططجت
 الدرجة مع أبي . سقيه حمراً الليلة أيضاً فادخل اصططجني معه فحجي من أبي
 سلا . فسقتا أباهما حمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واصططجت معه
 ولم يعلم باصططجعهما ولا بقيهما . فحبلت ابنا لوط من أيهما فولدت البكر ابنا
 وذهبت اسمه موآب وهو أبو المؤيس إلى اليوم ، والصغيرة أيضاً ولدت ابنا وذهبت
 اسمه بن عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم .

وفي الإصحاح الخامس والعشرين من ذلك السفر عن يعقوب وأخيه : ففكر
 لعلامان وكان عيسو إساناً يعرف الصيد إسان البرية ، ويعقوب إساناً كاملاً
 يسكن الخيام ، فأحب اسحاق عيسو لأن في هه صيداً ، وأما رافة فكانت تحب
 يعقوب . وطبخ يعقوب طيحاً فأق عيسو من الحقل وهو قد أعب . فقال عيسو
 ليعقوب . أعطني من هذا الأحمر لأنني قد أعيت ، لذلك دعي اسمه أدموم فقال
 يعقوب . نعم اليوم بكوربتك فقال عيسو أنا ماض إلى الموت فلماذا لي
 بكورية ؟ فقال يعقوب . أحلف لي اليوم فحلف له فباع بكوريته
 ليعقوب فأعطى يعقوب عيسو حيزاً وطبخ عدس ، فأكل وشرب وقام ومضى
 واحتقر عيسو الكورية ..

وبحيء بعد ذلك في الإصحاح السابع والعشرين أن اسحاق لما شاح وكلت
 عيساه عن لظفر أنه دعا عيسوا به الأكبر وقال له يا ابني اني قد شحت وبست
 أعرف يوم وفاتي فالآن حد عدتلك حبهتك وقوسك - واحرج إلى البرية وتصيد

في صيدا واصبح في اطلعة كما أحب وآتى بها لآكل ، حتى تاركك عسى قبل أن
 أموت . وكانت رقة سامعة إذ تكلم اسحاق مع عيسو ابنه فذهب عيسو إلى البرية
 كي يصطاد صيدا ليأتي به . وأما رقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إني قد سمعت
 أنك يكلم عيسو أحاك فائلا . انني بعيد واصبح في اطلعة لآكل وأباركك أمام
 الرب قس وعاني . فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا أمرك به . ذهب إلى العم وحدني
 من هناك جديين حديد من المعرى واصعبها اطلعة لأيك كما يحب ، فتحضرها إلى
 أبيك ليأكل حتى يباركك قل وفاته . فقال يعقوب لرقعة أمه : هو ذا عيسو أحى
 رجل أشعر ، وأنا رجل أملس . ربما يغسي أبي فأكون في عبه كمنهون وأجلب على
 نفسي لعنة لا بركة ، فقلت له أمه . لعنتك على يا ابني . اسمع لقولي فقد وادهب
 حدي ، فذهب وأحد وأحضر لأمه ، فصعدت أمه اطلعة كما كان أبوه يحب .
 وأخذت رقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الماهرة التي كانت عندها في البيت وألصقت
 يعقوب ابنها الأصغر ، وألصقت يديه وملامسة عنقه جلود حدي للمر . وأعطت
 الأطلعة والحلزون الذي صنعت في يد يعقوب ابنها فدخل إلى أبيه وقال . يا أبي
 فقال ها أنا . من أنت يا ابني ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد
 صنعت كما كلمتني قم أجلس وكل من صيدى لكى تباركني بمسك . فقال اسحاق
 لابنه . ما هذا ابني أسرع لتعد يا ابني . فقال : إن الرب إلهي قد يسر لي
 فقال اسحاق ليعقوب : تقدم لأحسبك يا ابني . آئت هو ابني عيسو أم لا ..
 فتقدم يعقوب إلى اسحاق أبيه فحسه وقال . الصوت صوت يعقوب ولكن ابني
 يد عيسو ، ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أحبه فباركه وقال : هن
 أنت هو ابني عيسو فقال أنا هو فقال قدم لي لآكل من صيد ابني حتى
 باركك عسى . فقدم ، له فأكل ، وأحضر له حمرا وشرب . فقال له اسحاق
 أبوه : تقدم وقبلي يا ابني ، فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر .
 رائحة ابني كرائحة حفل قد باركك الرب فليعطك الله من ندى السماء ومن دم
 لأرض وكثرة حطة وخمر ، ليستفيد لك شعوبا وتسجد لك قبائل . كن مبدا
 لأحوتك ويسجد لك برأملك . ليكن لأعولك ملعونين وماركوك مباركين . حدث
 عيسو فرح اسحاق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لندن اسحاق أبيه أن عيسو

جاء أنى من صيده فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه ليقيم
 أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تاركى منه . فقال له اسحق أبوه من
 أنت ؟ فقال أنا أنت بكرك عيسو . فارتعد اسحق ارتعادا عظيما جدا وقال من
 هو الذى تصطاد صيدا وأتى به إلى فأكلت من الأكل قبل أن تحيى وباركته ؟ نعم
 ويكون مباركا . فعصا سمع عيسو كلام أبوه صرح صرخة عظيمة ومرة جدا وقال
 لأبيه باركك أنا أيضا يا أبى . فقال قد جاء أخوك بمكر وأحد
 بركتك فقال ألا إن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبى الآن مرتين أحد بكورنى
 وهو الآن قد أحد بركتى ثم قال . أما أنفت لى بركة ؟ فأجاب اسحق وقال
 لعيسو أنى قد جعلته سيدا لك ، ودعيت له جميع اخوتك عبيدا وعصيته عظمة
 وحمر فدا ؟ أصنع إليك يا ابى ؟ فقال عيسو لأبيه ألتك بركة واحدة فقط يا
 أبى ؟ باركك أنا أيضا يا أبى . وروح عيسو صوته وبكى فأجاب اسحق أبوه وقال
 له هو ذا بلا دم الأرض يكون مسكلك ولبلدى السماء من فوق ، وبسيفك
 تعيش ولاحيث تستعيد ، ولكن يكون حبيبا تجمع ألتك تكسريه من عثلك .

ومما برز من داود عليه السلام في العهد القديم قصص كثيرة نذكر منها في هذا
 العدد قصته مع قائده أوريا وروحه أثناء القتال وهى القصة التى جاءت في
 الأصحاح الحادى عشر من كتاب صمويل الثانى حيث يقول . وكان عند تمام
 العام في وقت حروب الملوك ان داود أرسل يوتآ وعبيده معه وجميع اسرئيل
 فأحرقوا بى عمون وحاصروا ربة . وأما داود فأقام في أورشليم وكان في وقت المساء
 أن داود قام عن سريره ومشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة
 تستحم ، وكأبت المرأة حيلة المطر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال
 واحد أنبت هذه سمع ست إجمام امرأة أوريا الحثى ؟ فأرسل داود رسلا
 وأخذها فدخلت عنده واصططح معها وهى مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها
 وحبت المرأة فأرسلت وأحبرت داود انى حلى فأرسل داود إلى يوتآ
 يقول . أرسل إلى أوريا الحثى فأرسل يوتآ أوريا إلى داود ، فأتى أوريا إليه
 فسأله داود عن سلامة يوتآ وسلامة الشعب وبخاخ الحرب ، وقال داود
 لأوريا ارب إلى بيتك واعسل رحلتك ، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت

رأه حصاة من عند الملك ، ونام أوربا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده . ولم تنزل إلى بيته . فأحبوا داود فأتوا . لم ينزل أوربا إلى بيته فقال داود لأوربا : أما جئت من السمرة ؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوربا لداود : إن الكنوت واسرائيل ويهوذا ما يكون في الخيام . وسيدى يوتآ وعبيد سيدى يارلون على وجه الصحراء . وأنا أتى إلى بيتي لأأكل وأشرب وأصطبح مع امرأتى وحياتك وحياة نفسك لأأهل هذا الأمر . فقال داود لأوربا أقم هنا اليوم أيضا ، وغدا أطبقك فأقام أوربا في اورشليم ذلك اليوم وعده . ودعا داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليصطبح في مصطبعه مع عبيد سيده . ولى بيته لم يبق . ولى الصباح كتب داود مكنوبا إلى يوتآ وأرسله بيد أوربا . وكتب في المكنوب يقول : أحملوا أوربا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فبصره ويموت . وكان في محاصرة يوتآ المدينة أنه جعل أوربا في الموضع الذى علم أن رجال الناس فيه فخرج رجال المدينة وحاربوا يوتآ فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوربا الحشى فأرسل يوتآ وأحبر داود بجميع أمور الحرب فلما سمعت امرأة أوربا أنه قد مات أوربا رحلتها مديت بعلمها ، ولما قصت المناحة أرسل داود وصحبها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا ، وأما الأمر الذى فعله داود ففصح في عين الرب :

• • •

ومن أمثال هذه الروايات عن الأنبياء المذكورين في التوراة قصة هوشع الذى قيل في كتابه إن : أول ما كلم الرب هوشع ، قال الرب له هوشع : اذهب حد لتفك امرأة ربا وأولادها لأن الأرض قد رثت ربي تاركة الرب . فذهب وأخذ حومرت دبلايم فحبست وولدت له ابنا فقال له الرب : ادع اسمه يورعيل لأنى بعد قليل أعاقب بيت يهوذا على دم يورعيل وأفيد مملكة بيت اسرائيل ويكون في ذلك اليوم أنى أكسر قوس اسرائيل في وادى يورعيل . ثم حبلت أيضا وولدت بنتا فقال له : ادع اسمها لورحامة لأنى لا أعود أرحم بيت اسرائيل أيضا . بل أرحم نزع :

ثم يتبع هذا الإصحاح إصحاح تال يقول فيه الرب : وقال الرب لى اذهب أيضا أحب امرأة حية صاحب وراية كمحبة الرب لى اسرائيل وهم ملتفتون إلى

آفة أخرى ومخون لأقراص الزيب فاشترتها لعمى محمصة عشر شافل عصة ومخومر
ونلك شعير وقت لها . تفعدين أياما كثيرة ولا تزي ولا تكوي لرجل ، وأنا كدلك
لك لأن بي اسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا بلد وبلا رئيس وبلا رجة وبلا تمثال
وبلا أهود وترافيم

هذه الأحبار وما إليها بورد منها ما أوردها ولا ناقشه أو نتعرض بعينه وإثنته
لأننا لم نكتب هذه الفصول لحوص في الخذل انديبي الذي لا صلة له بما يسه من
عريضة التعكير في الإسلام ، ولكننا بورد تلك الأحذر لاستخلص منها مسيح الإنسان
أمام لأدين كما بتعلمه من الإسلام ومهجه أمام الإسلام كما يتعمه من غيره

فالدين يقلون هذه السوات ويكدون برسالة عيسى ومحمد عبيها السلام ، أو
لدين يقتوب جميعاً ويكدون رسالة نبي الإسلام وحدها لانقام عندهم حجة لسوة
بقداسة اسير ولا يعظمه الأثر ولا بمصيلة الهداية في آدائها ومعانيها

أما الإسلام فإنه يعلم المسلم أن يقل جميع الرسالات ولا يرفض منها شيئا لغير
سب بفقهه وريقم احجة عليه مما يعي لصفة النبوة أو يسمى لصلاح لرسالة

وإذا فصل الإسلام على سائر الأديان فهو لا يفصله لأنه دينة وكفى ، وامي
بفصله لأنه يدعو في كل عقيدة دينة إلى ما هو حير عنده مما يدعى إيه في الأديان
عامة .

فالله اندي يدين به المسلم رب واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ،
وهو رب العالمين فتح لهم باب الخلاص بهداية الأسياء مد وجدوا ، وليس رب لقبلة
أو عشيرة يكتبها الخلاص وحدها وتحص بالخطوة دون من عداها من عامة بي
الإنسان ..

والسوة التي يدين بها المسلم هي سوة الهداية التي ترشد العقل بالبيئة والموعظة
الحسنة ولا تصحمه بالمجرة المسكنة أو بالحاجة من المجهول

والإنسان في عقيدة الملم مخلوق مكلف يجبو عمله لا بالوساطة التي لا فصل نه
فيها . ويحمل وزره ولا يحمل الأوزار من ميراث الآباء الأولين . وكل معاصرة بين
عقيدة وعقيدة عند الملم مردها إلى سبب . وسببها قائم على فصيلة يفهمها العقل
ويطمش إليها الصمير . وقد يختلف فيها العيب والشهادة . ولكنه الاختلاف لا يهدم
العقل فما تقرر لديه . وإعما بعوقه نأ يتسمه إذا انتهى إلى غاية مداه

الاجتهاد في الدين

مصادر الشرائع والأحكام في الدين الإسلامي ثلاثة الكتاب والسنة والإجماع .

ونقوم الإجماع على إحتداد أول الأمر وأهل الذكر بما اشتمل عليه من قياس واستحسن أو مصالح مرسله ، أى مصالح لم تنقيد بحكم خاص يطبق عليها في جميع الأحوال وجميع الأزمنة ، ولكنها من العوارض المتغيرة التي يطر فيها المسلمون إلى مصالحهم بحسب أحوالها وأزمنتها ..

والفهم واجب على المسلم في الأخذ من جميع هذه المصادر والعمل بها ، فلا تعارض بين النص والإحتداد في وجوب الفهم في كل منها ، لأن المسلم - بعدى نفاذ من الأوامر الإلهية التي توجب عليه التفكير والتدبير والإحتكام إلى العقل والبصيرة - لا يستطيع أن يعتقد أنه مطالب بانواع النص بغير فهم ولا تفرقة بين مواضع الانواع وأسبابه ، ومن قال أن العمل بالنص يعنى العمل بغير فهم فليس هو من الإسلام في شيء .

والعرائض كلها في الإسلام تتساوى في شرط واحد وهو الاستطاعة ، ومنها التفكير فلا فرق بين الصلاة والحج والزكاة والتكبير في شرط الاستطاعة ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها :

﴿ قَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَآعٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (سورة النقرة)

والتكبير في أمور الدين أصل من الأصول المقررة . أما التقليد فهو حاة من حالات الضرورة التي تعنى من الإحتداد بالفهم من يعجز عنه ولا يستطيعه وقد يكون المستطيعون للإحتداد أقل عدداً من المستطيعين للصلاة ، وكذلك المستطيعون للزكاة والحج هم أقل عدداً ممن يؤدون صلاتهم أو يقدررون عليها ، ولكن الفرق في الاستطاعة لا يجعل المعجز عن الفريضة واجبا محتويا ما يلزمه المعاجر ولا يعمل على

المخلص منه كلما استطاع إذ الفرق ظاهر بين الواجب الذي لا يستطاع والمحرم الميسر عنه فلا إيجاب للتقليد ولا تحريم للاجتهاد بالمعكر ، وشتر الناس في الإسلام من يحرم على خلق الله أن يفكروا ويتدبروا بعد أن أمرهم الله بالتفكير والتدبر وأبأهم بعاقبه الذين لا يفكرون ولا يتدبرون ، ومثله شرا من يحرم الاجتهاد على الناس جميعاً لأنه قضى على خلق الله إلى آخر الزمان المحرمان من نعمة العقل والعلم والصلاح .

ومن أبايح لنفسه أن يحرم على الناس نعمة العقل والعلم إلى آخر الزمان فقد اجتهد برأيه اجتهدا أبعد في الدعوى من كل ما يدعيه المجتهدون على حق أو على باطل فإنه يلغى أوامر الله بعباده حيث يتحرى المجتهدون أن يتعوا الوسيلة إليها فهو يهين أساس برأيه عما أمرهم به الله واجتهدوا قادرين أو عاجزين أن يطبقوه .

ويس التذكير في الإسلام عوضا من النص أو ما يشبه النص في الأحكام ، بن هو فرصة مخصوص عليها مطلوبة لذاتها ولا يتوقف عليها من فهم المرادف الأخرى ، وكلها محظور على المسلم أن يمله وهو قادر على الهوى بتكاليه غير مضطر إلى تركه ، فإن تركه لمبر ضرورة فهو مقصر محاسب على التقصير

وقد وقع الاجتهاد في الإسلام نصا وعرفا وتقليدا إن صح هذا التعبير ومعنى بالتقليد هنا حسن القدوة بالأوليين والتابعين من السلف الصالح ، وأول الأولين بنى الإسلام عليه السلام ثم الخلفاء الراشدون ومن تبعهم في العصور التي اشتدت فيها حاجة المسلمين إلى الاجتهاد فإن العدد من القدوة المشاهدة من الخلف الصالح أخرى أن ينجى ولادة الأمور وأهل الذكر بين المسلمين إلى التفكير بها يصبح لأمرتهم ولم يكن معهودا في أزمنة الأولين ..

من اجتهد النبي صوات الله عليه فيما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن أبيه حيث قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما علمني وحافظ على الصلوات الخمس فقلت إن هذه ساعات لي فيها أشغال فمرني بأمر جامع إذا أنا فعلته أحرأ عني فقال : حافظ على العصرين ، وما كانت من تعبت فقلت وما العصران ؟ فقال : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة بعد غروب

ومن الاجتهاد النبوي فيما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزهم المسجد ليكون رُق لملوبهم ، فاشترطوا ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يحجوا - أى لا يخرجوا للجهاد ولا توحد منهم الزكاة ولا يحجوا للصلاة - ولا يستعمل عليهم غيرهم فقال صلى الله عليه وسلم لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم . ولا حبر في دين لا ركوع فيه ..

* * *

ويروى أبو داود عن جابر أنه سمع رسول الله يقول بعد ذلك : سيصدقون ويجاهدون :

ومما رواه الإمام أحمد في مسنده عن بصري عن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لا يعلى إلا صلاتين . فقل ذلك له وجاء في البحارى أن أم عطية قالت : ياينا صلى الله عليه وسلم فضر عيب : أن لا يشركي بالله شيئا : وبها عن البياضة ، فقصت امرأة بدها فقالت : « أسعدني هذلة فأريد أن أخربها » وجاء في رواية النسائي أنه عليه السلام قال لها : فدهبي فأسعدنيها ، ووجعت فبأيها ..

وأشبه هذا من وقائع الاجتهاد النبوي غير قليل ، وأنه لاجتهاد رسول الدعوة الإسلامية : أحق الناس بتيسير هذه الدعوة ، وأنه كذلك لأحقهم بالتشدد فيها حيث يترخص المُرخصون ..

أما الخلفاء الراشدون فقد اجتهدوا منذ عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق في المصالح المرسنة التي لم يرد فيها نص ولم تسبق لها سابقة ، وأجمل الإمام أحمد بن إدريس القرطبي ما اجتهدوا فيه من قبيل تلك المصالح فقال في كتابه « شرح تقيع المصنوع » : « وما يؤكد العمل بالمصالح المرسنة أن الصحابة رضوان الله عليهم عملوا أمورا مطلقا لمصلحتهم لا لتقدم شاهد بالاعتبار ، بحوثات المصحف وم يتقدم مع أمر ولا نظير وولاية المهدي من أبى بكر لعمر رضى الله عنها وم يتقدم بها أمر ولا نظير . وكذلك ترك الخلافة شورى وتدوين اللوائح وعمل لسكة للمسلمين

واتخاذ السجن فعل ذلك صبر من الخطاب رضى الله عنه ، وهد الأوقاف التي بازاها
مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتوسعة بها في المسجد عند حيقه فعله
عثمان رضى الله عنه ، وتحديد الأذان في الجمعة بالسوق فعله عثمان رضى الله عنه
ثم نقله هشام إلى المسجد وذلك كثير جدا لمطلق المصلحة .

و جتهد أبو بكر وعمر معا فيها ورد فيه النص لزوال العلة الموجبة كما فعل في سهم
الركافة للمؤمنة قلوبهم، وكان لهم سهم يأخذونه من رسول الله صلوات الله عليه تألعا
لقلوبهم أيام ضعف الإسلام وضعف عقيدتهم ، وسهم عاصم بن مرداس والأفرع بن
حابس وعيينة بن حصص وأبو سفيان بن حرب وابنه معاوية . فلما ولي الصديق جاءوه
يسألونه سهمهم هذا فكتب لهم بذلك إلى عمر فرق الكتاب وقال لهم لا حاجة
بنا بكم فقد أمر الله الإسلام وأعزى عكم . فإن أسستم وإلا فالسيف بسب
وبيكم ، فلما رجعوا إلى الصديق يستثيروه ويسألونه والله لا ندري أت الخيفة أو
عمر ؟ قال بل هو إن شاء ، وأمرني ما فعله عمر كما جاء بعصبة في كتاب
الجوهرة على مختصر القلوزى ..

قد في كتاب حقائق الإسلام : ومن سوء الفهم أن يقال أن العاروق خالف
ابن عمر في هذه القضية ، وإنما يقال إنه اجتهد في فهم النص كما يسمى وأنه بحث عن
المؤمنة قلوبهم فلم يجدهم . لأن تأليف القلوب إنما يكون مع مصلحة للإسلام
والمسلمين . فإن لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤمنة يستحقون العطاء ، ولو أن عيينة
والأفرع وأصحابها سئلوا يومئذ . أهم من المؤمنة قلوبهم يستحقون العطاء لأنهم
ضعاف الإيمان لما قسوا أن يشترطوا في ديوان العطاء .

وأبى من ذلك في باب الاجتهاد مع وجود النص ما رواه الإمام ابن فم الحوزية
مفصلا في كتابه عن أعلام الموقعين حيث قال عن إسقاط حد السرقة في عام
الحجاة : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسقط القطع عن السارق في عام
الحجاة . وبعد أن ذكر الأسناد المتناسخ قال حدثه عن عمر قال لا تقطع اليد
في عتق ولا عام سنة قال السعدى سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث
فقال ألعنك السحلة وعام سنة الحجاة ، فقلت لأحمد تقول به ؟ فقال أى

لعمرى . قلت : إن مرق في جماعة لا تقطعه ؟ . فقال لا إذا حملته الحاجة على ذلك والناس في جماعة وشدة . قال السعدى وهذا على نحو قصبة عمر في عيان حاطب إن عمة لحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مريئة فأتى بهم عمر فأمروا فأرسل إلى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له إن عيان حاطب سرقوا ناقة لرجل من مريئة وأقروا على أنفسهم فقال عمر : يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع أيديهم فلما رأى بهم ردهم عمر وقال أما والله لولا أبى أعين أنكم تستمسوهم وتحبوسهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل به لقطعت أيديهم وأبى لهم أنه لم يفعل لأعزمتك عرامة توجعك ثم قال يا مرق : يكمن أريدت ناقةك ؟ قال بأربعةائة قال عمر : اذهب فاعط ثمانية وذهب أحمد إلى موافقة عمر في الفصلين جميعاً ..

يقول أيضاً إنه من الخطأ أن يقال إن العاروق ترك النص أحداً بالرأى ، فإنه في الواقع عمل بالنص فلم يقم الحد في غيرهم ، ولا يتم مع الاضطراب وبأنه من غير ما فعل لكان أمّا حاشاه . لأن إقامة الحد في غير موضعه مكر كإسقاطه في موضعه . وما كان إطلاق الآثم أهون شراً من عقاب البريء . ومن كان إماماً فهم يدرأ الحدود بالشبهات ولم يحسب حساب الضرورة التي بطل معها الإثم فهو مهترى . عن حدود الله ، وحكمه حكم من ترك الحدود بغير برهان

ومن المهم المعكوس أن يقال إن الاجتهاد لازم في عصر الدعوة النبوية ولخصوص من الكتاب توارد والسنة من أحاديث النبي حاضرة وصاحب الدعوة أمام الناس يسألونه ويحييهم . ثم يقصى ذلك المهد فيحرم الاجتهاد وهو المثل الوحيد بين أيديهم لهم النصوص وتصحيح العمل بالفرائض والأحكام فهذا من المهم المعكوس ولا مره ، لأنه يقصى بالاستملاء عن الاجتهاد عند الحاجة إليه ، والمهم الصحيح في هذه المسألة الجليلة أن ماضيه المبني عليه السلام وقابله فيه الراشدون من خلفائه وأصحابه وجب على المسلمين أن يصنعوا مثله ولهم قدوة من أولى الناس أن يقتدوا بسيرته وعمله .

وشبه هذا في الفهم المكور أن يقال إن الاجتهاد يصح حين تصح الدم وتظهر الصائرات وتسلم العقائد ويكثر الصالحون . ولكنه يظل ولا يصح إذا عم الفساد وردت الصائرات وصعب اليقين بالأعمال والبيات ، فالواقع أن عهد الفساد عهد تكثر فيه الشبهات التي يسمي للحاكم أن يدرأها عند إقامة الحدود وتكثر فيه الصعوبات التي يجب عليه أن يقررها بأقدارها عند توقيع العقاب ، وولي الأمر هو المسئول المحاسب على إقامة الحد في موضعه ودرء الشبهات في مواضعها ، وهو المسئول المحاسب على تقدير الصعوبات فيما يجريه من عقاب أو يسقطه من حراء ، وعليه أمانة هذا الواجب الذي يتساوى فيه وضع الحراء في موضع الإجماع ووضع العفو في موضع الحراء . فإن لم يكن بالحاكم ثقة أن يجري الأمور بحراها ولم يكن بالناس ثقة أن تصح فيهم الدم وتسلم الصائرات فمن لعمري القول أن بطول الجدول يمس بقيم الأحكام وفيها يقام ...

ويتبين من تاريخ العالم الإسلامي في جملة أنه على ما اعتراه من أدوار التأخير والحمود لم يستمتع طويلاً لآراء القائلين بحق الاجتهاد في أية صورة من صورته ، فبدأ غلب لتقييد في بلد من بلاده لم يخل سائر البلدان من أئمة يقولون بالاجتهاد ويعملون به في كل باب من أبوابه ، وهي كثرة تدل كثرتها على كثرة البحث فيها وكثرة لاعبين بها . .

فإن أبواب الاجتهاد القياس ، وهو أن يرى المجتهد رأياً فيما لم يرد فيه نص من الكتاب والحديث قياساً على ما ورد من النصوص للمشاهدة في العلة والمقصد .

ومن أبوابه الاستحسان ، وهو المقابلة بين حكيم مستدين إلى النصوص ترجيحاً لأحد الحكيم على الآخر لأن الراجح منها أوى بالمقصد وأقرب إلى النسب المشروط في إجراءاته ..

ومنها المصالح المرسلة ، وهي المصالح التي لم تنقيد نص ولم يسبق لها نظير ، ولكنه عمل تتحقق به مصلحة الأمة في حالة من الحالات فيتصرف بها الإمام المسئول بما يوافق تلك المصلحة ويمنع الضرر من قواتها

ومنها يكفى من قول بمنع الاجتهاد من الحق أن يعلم أن عمل السياسة فيه كان أقوى وأفضل من عمل الدين وبواعث العقيدة أو الشريعة ، وهذه مسألة لها خطرهما في هذا البحث عن فريضة التكفير في الإسلام ، فهي حقيقة أن يرجع بها إلى أصولها وأن يذهب بها إلى عبايتها التي تتكشف من حوادثها وأزماتها

فلم يتردد في العالم الإسلامي قول القائلين بمنع الاجتهاد كما تردد في عصر الدعوة العاطمية التي تعرف أحياناً باسم الدعوة الباطنية أو الدعوة الاسماعيلية ، وبسبب إيهام الإيمان بالإمام المستور والمباينة له جهرأً وسراً إذا اقتضت « النقية » إخفاء أمره إلى حين

وحلاصة المذاهب الإمامية أن هذا العالم لا يحلوا من إمام يقوم بالهداية ويعلم من أسرار الدين ما لا يعلمه أحد من نخاسة العلماء أو من عامة المقدسين ، لأن هؤلاء جميعاً إنما يعلمون ما ظهر منصوص الكتاب ولا علم لهم بما بطن فيه ، وهو عندهم معنى الحديث الذي يقول « إن القرآن نزل على سبعة أحرف » فلا يهتدى إليها على حقائقها غير الإمام الذي اختصه الله بأمانة الإلهام

وقد نشأ مذهب الطاهرية ليقاوم هذه الباطنية ويكر الحاجة إلى إمام مستتر يعلم ساس ما ليس في وسعهم أن يتعلموه من طاهر الآيات والأحداث .

ونشأ مذهب الطاهرية في المشرق فقام به في بغداد داود بن سنان الطاهري (٢٠١ - ٢٧٠ هـ) ولكنه لم يبلغ من القوة والشيوع مبلغه في المغرب عن يد الإمام عيسى بن أحمد بن سعيد المشهور باسم ابن حزم الطاهري (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) إذ كانت الدعوة العاطمية أو الإمامية الاسماعيلية على ألقواها وأشيعها في بلاد المغرب من أفريقيا الشمالية وكان ابن حزم أمويأً شديد التعصب للدولة الأموية شديد الإنكار على من يقاومها من العلويين أو العاطميين ، حتى قال بعضهم عنه أنه « صلب » أي ممن يعادون شيعة آل البيت ويناصيهم العداة

قال ابن حزم في كتاب الفصل « واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته ، كله برهان لا مشاحه فيه ، وانهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا

برهان وكل من ادعى للديانة سرّاً واطناً . فهي دعاوى ومخارق واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحكم من الشريعة كلمة هما فوقها ولا أطلع أحص الناس به من روضة أو أبنه أو عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كشمه عن الأحمر أو الأسود ورعاة العم ، ولا كان عده عليه السلام سر ولا مرم ولا ماطن غير ما دعى الناس كلهم إليه ، ولو كنتمهم شيئاً لما بلغ كما أمر . ومن قال هذا فهو كافر فإياكم وكل قول ثم يرسب له ولا وصح دليله . ولا تعوجوا عما مضى عليه ببيكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم .

وكان من المسائل التي طبع ابن حزم بتقريرها مسألة الوراثة في الإمامة فقال في كتاب لفصل أيضاً : « لا خلاف بين أحد من المسلمين في أنه لا يجوز التوارث فيها ولا في أنها لا يجوز لمن لم يبلغ حاشا الروافض فإياهم أجاروا كلا الأمرين ، ولا خلاف بين أحد في أنها لا يجوز لامرأة » .

ونكس ابن حزم لا يكر ولاية العهد ولو كانت في مرض الموت كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن بكر ، وكما فعل أبو بكر بصير . وكما فعل سليمان بن عبد الملك بصير بن عبد العزيز قال : وهذا الوجه هو الذي يختاره ويكره غيره ، نافيه من انصبال الامام وانتظام أمر الإسلام وأهله . ورفض ما يتخوف من الاختلاف والشعب مما يتوقع في غيره من بقاء الأمة موصى .

وقد اختار ابن حزم لتعريف هذا الرأي - أي حوازي المباشرة بولاية العهد حتى في مرض موت - حقيقة أموريا لا يختلف المسلمون من أهل السنة أو من الشيعة في صلاحه وتوقيفه ، وهو عمر بن عبد العزيز الذي قال فيه الشريف الرضي

يا ابن عبد العزيز بو بكت العبي قتي من أمة ليكنيتك
غير أني أقول أنك قد طبت ، وإن لم يبط ولم يرك بيتك
ومما يدل على أن الظاهرية قامت على أساسها أصلاً لادحاص الدعوة الباطنية أن ابن حزم لا يبطل الاجتهاد بل يوجهه على جميع المسلمين وإما يكر أن يختص بالاجتهاد إمام واحد يبقى يعلم بغيره ولا يكشف للمسلمين عامة منصوص الآيات والأحاديث فهو يقول في الجزء الأول من المجلد : « لا يحل لأحد أن يقلد

أحد لا حياً ولا ميتاً ، وكل أحد له الاجتهاد حسب طاقته ، فمن سأل عن دية فؤاد
يريد معرفة ما أكرمه الله عز وجل في هذا الدين . فعرض عليه ان كان أحهل أهل
الدية أن يسأل عن أعظم أهل موضعه : إلى أن يقول : ومن ادعى وحبس تقليد
العامي للمفتي فقد ادعى الباطل وقال قولاً لم يأت به قط قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا
قياس ، وما كان هكذا فهو باطل لأنه قول بلا دليل .

وعلى هذا يكون ابن حرم متوسعاً في تحكيم العقل غير متعرج منه إلا أن يختص
به أحد دون جمهرة المسلمين ، وهو لا يبطل التصرف في فهم ألفاظ النص كل
الابطال ، بل يميز العدول عن ظاهر اللفظ إذا اتضح بالدليل العقلي الذي لا يرد أنه
مستحيل لا يجوز أن يكون هو المقصود بالأمر الإلهي . وفي ذلك يقول من آخره الثاني
من كتاب الفصل : ان كلام الله تعالى واجب أن يحمل على ظاهره ولا يحمل عن
ظاهرة البتة إلا أن يأتي نص أو إجماع أو ضرورة حس على أن شيئاً منه ليس على
ظاهرة ، وأنه قد نقل عن ظاهره إلى معنى آخر فالإنقياد واجب عليه . أوجه ذلك
لنص أو الإجماع أو الضرورة لأن كلام الله تعالى وأحكامه لا تحتجب ، والإجماع لا
يأتي إلا بحق ، والله تعالى لا يقول إلا الحق وكل ما أبطله زهاد ضروري فليس
بحق

• • •

وروي ابن حرم هذا فيما يجيز العدول عن ظاهر اللفظ إلى معنى غير الظاهر قريب
جداً من مذهب القائلين بالرأى ، ولكنه يخالفهم في القياس والاستحسان والمصباح
المرسنة وهو - مع هذه المخالفة - لا يحجر على الاجتهاد ولا يجمع المسلمين عامة أن
يرجعوا إلى عقولهم في أمور الدين ، بل يعرض الرجوع إلى العقل على العالم والجاهل
الذي يستطيع أن يجد من يسأله ويتعلم منه ، وعاية ما يخشى من نتائج المذهب
الظاهري لو دام وتقرر في بلاد المسلمين أنه يصدر هرقاً من العلماء القادرين على
الاجتهاد النابع عن الاصطلاح بأمانة القيادة الفكرية ، وإن كان لا يصدهم عن
تعليم الناس ما علموه والمشورة على ولاية الأمر بحس أو لا يحسن في مواطن

التشريع ، وعليهم بعض العت في تدبير المصالح المرسله عما تقتضيه من مواقفه
للصعوبات ..

ولعل هذا المذهب الطاهري أهم المذاهب التي انتجتها دواعي السياسة و
المعبر ، وقد شاع حينا ثم صعب وأحد في الزوال شيئا فشيئا برؤال الحافظ الخليل
في المضي في بشره والتسبيه إليه

أما في المشرق فقد أضحى عن الدعوة الخليفة إلى بشر المذهب الطاهري أن الخلفاء
والأمراء كانوا يسيرون المدارس ويجرون بها الحراية على طائفة من علماء المذاهب
الأربعة لا يشترك فيها غيرهم من أصحاب الاجتهاد وقيم من كان في طلبة الأئمة
الأربعة في العلم والنصاح ، وكان له أنشاع يأتون به رعا قاربوا في عددهم أنشاع
الأئمة أي حبيبة والشافعي ومالك وأحمد ، ولكن مذاهبهم لا تدرس في المعاهد التي
تعرض ها الجراية من خزانة الدولة وهات الخلفاء والأمراء

وانتهى الأمر في أوائل القرن السابع بأمر الخليفة المستنصر علماء الفقه و
المدرسة المستنصرية أن يقصروا دروسهم عن أقوال الأئمة من قبلهم ولا يدرسوا كتابا
من كتبهم لتلاميذهم ، فدعاهم الوزير وأبلغهم أمر الخليفة فقال جلال الدين الحواري
أستاذ المذهب الحنبل أنه على هذا الرأي ، وقال الشرماسي أستاذ المذهب
المدني أنه يربط النقط في مسائل الخلاف وليس لأصحابه تعلية أي شرح
مدونة ، وقال شهاب الدين الزنجاني أستاذ المذهب الشافعي وعبد الرحمن اللمعي
أستاذ المذهب الحنفي أن المشايخ كانوا رجالا وعلم رجالا ، فإذا رجع لوزير
وجانهم إلى الخليفة دعاهم إليه وأعاد إليهم أمره فأطاعوه ، وجرى مثل ذلك في
المدرس الكبرى فتصادم شأن القائلين بأرائهم في مسائل الفقه والأصول ، وكثر
الإقبال على دروس المذاهب التي يتعلمها الطلاب في معاهد الدولة ، وسهم بخيار
القضاة والمعلمين وحطاه المساجد وعمال النواوين .

جاء في شرح جمع الخوامع أن الشيخ أباررة سأل أستاذه الملقب عن الشيخ
تقي الدين السبكي كيف يفقد وقد استكمل آلة الاجتهاد ؟

قال الشيخ : فسكت عى ثم قلت ما عدى أن الامتناع عن ذلك إلا
بوظائف التي تحرى على ضهاء المذاهب الأربعة . وأن من حرج على ذلك وحسد م
بئله شيء وحرم ولايه القضاء وامتنع الناس عن استغاثته وسب إلى الدعة فيسب
ورافقى على ذلك ..

كان هذا في القرن السابع للهجرة وما بعده قليل ، ثم رت على العالم
الإسلامى عاشية الحمود والصعب فانقطع الناس عن العلم اجتهادا وتقيدا وتوكلوا
في كل شيء من حلال الأمور وصعائرها وقل الاعتماد على النفس وقل من يثق
بنفسه أو يستحق الثقة من غيره ، وندر من يتقدم لادعاء الاجتهاد ومن يصعى إليه
لو دعه ، وجرت أحوال الحياة جميعاً على الاتباع والانقياد ، ولم يبال الناس ما
حالف الولاة وما وافقوا من عب الدين أو من العرف المأثور . وحدثت هذه الفقرة
محو أربعة قرون ، تناهت فيها الصربات والقوارع على الأمم الإسلامية حتى تيقظت
فيها بعد السبات الطويل بقايا الحياة التي كمت في سرائرها من وحى عقيدتها فمع في
كل أمة منها رهط من القادة العيورين يجاهدون ويجهدون ويعودون بها كما بدأ
الإسلام إلى حاضرة الدين ، وتعلم المسلمون من جهود الحمول والكسة دروساً كالتى
نعمموها من جهود العرة والتقدم فحواها من طرفها المتأخضين أن المعجز عن
الاجتهاد والمعجز عن الحياة مقتربان ، وأن المسلمين يحتمطون بمكاسهم بين أمم تعلم ما
حتمطوا بفريضة التكبير .

التصوف

قبل تمييز الخاصة التي انعزدها التصوف الإسلامي سأل عن الخاصة المميزة للتصوف عامة ما هي ؟

فالتصوف في أجم العرب المسيحية يشتق من الخفاء أو السر ، ويطلقون عليه اسم « مسترزم » Mysticism أي « السرية » أو المعاني الخفية فخاصته المميزة له عندهم هي : البحث في البواطن والتعمق في الأسرار المعية وراء الظواهر

واسم التصوف العربي يختلف في اشتقاقه وسبب إطلاقه ، فالقول الشائع أنه مأخوذ من الصوف وأن المتصوف هو الذي يتحشش ويتزهد ويرى التساك المتعبد ، وخاصته المميزة له على هذا المعنى أنه زهد وتقصي وانعزاد عن الترف والمتعة ..

ويقول بعضهم أن الصوف مسبوق إلى صوفة ، كما جاء في أساس «سلافة للزهرشري وغيره » « وكان آل صوفة يحميون الحاج من عرفت أي يهبسونهم ، ويقال لهم آل صوفان وآل صفوان ، وكانوا يخدمون الكعبة ويسكنون ، ولعل الصوفية نسبوا إليهم تشبيهاً بهم في السك والتعبد » وبما رواه ابن الجوزي في كتاب تلخيص ابلهس : « إنما سمي الغوث بن مرصوفة لأنه ما كان يمشي لأمه ولد فلنرت . لكن عاش لتعلق برأسه صوفة وتجعل له ريط الكعبة ، فعملت لقبول له صوفة ولولده »^١ من بعده » .

وإذا صح هذا التحريج فالصوف اسم منقول على سبيل التشبيه لا يدل على الخاصة المميزة للتصوفية بعد الإسلام إلا من قبيل المبالغة في الخلعة الدينية العامة .

وآخرون من المحدثين يرجعون أن الكلمة مستعارة من اليونانية بمعنى الحكمة الإلهية وهي مركبة في تلك اللغة من كلمتين هما « ثيو » أي الإله و « سوي » أي

الحكمة ومعنى التصوف إدد مقابل لمعنى الحكمة العقلية وهى العسفة ، لأن النصوص يطب حكمة من طريق الدين ، وربما كانت المقدرة فى اللفظ أقوى سند يعتمد عليه القائلون إلى استعارته من اللغة اليونانية ..

ويرجع الكثيرون أن التصوف مسوب إلى أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول ، ويحب الصوفيون أنفسهم أن يشتقوا الكلمة من الصفاء كما جاء فى كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف « إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارهم وبقاء أكرها وقل بشرين بخارث « الصوفى من صفا قلبه لله « ونظم أبو الفتح البستي هذا المعنى شعراً فقال :

وبست أهل هذا الاسم غير قى صاى صوفى حتى سمى الصوفى
ولدين آثروا هذا التحريج لكلمة الصوفية لا يفصلون تحقيق التاريخ ولا ابدعة
ولكنهم ليستعملون الجنس لاستخراج لمعنى البهمن اللفظ القريب كعادة
الصوفية فى تجميل الكلمات مايريدونه من الإشارات ، فهو من ثم أقرب الأسماء
إلى اختيارهم وإظهارهم ، ولعله أدلها على الخاصة المميزة لهم بين الخواص
المفصلة التى هى أن تصدق عليهم ..

فلننمق فى طلب الأسرار صفة مشتركة بين الصوفية وفلاسفة التصكير الذين
يفوضون على الحقائق البعيدة وعلماء النفس الذين يقبضون عن ودائع لوعى الباطن
وغرائب السريرة الإنسانية ...

وليس الصوف إد دل على التحنس والزهد فى الدنيا لم يكن خاصة مميزة
لصوفية لأن أساساً من أقطاب الصوفية أخذوا نصيبهم من الدنيا وأبوا وفهموا أن
الزاهد من لا تمكنه الدنيا وإن ملكها ، أو كما قال مسروق « الزاهد من لا يمكنه مع
الله سبب » ولا ضرر عليه أن يملك الأسباب ..

والاشتغال بالحكمة الدينية عمل يمله حكماء الصوفية وهم طائفة من أهل
التصوف مع طوائفهم الكثيرة التى تملك مسلكهم ولا تحبس من حكائهم ، بن
يرى وجد من علمائهم من يكتب فى المعاملات . وقد كرههم الامام أبو بكر محمد

ابن اسحاق الكلاباذى فقال فى كتاب الصرف بعد تسمية بعضهم : **«خُلاهم»** .
الأعلام المذكورون المشهورون المشهود لهم بالفصل الذين جمعوا علوم المواريث إلى
علوم الاكتساب . سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن . تشهد
بذلك كتبهم ومصنفاتهم ، ولم تذكر التأخرين وأهل العصر وإن لم يكونوا بدون من
ذكرنا علما لأن الشهود ينفى عن الخبر عنهم »

فالصوفية قد يعلمون الصوف وقد يعيشون بين الناس ولا يتفعلون للخدمة
الدنية ، وقد يكتبون فى الحكمة الإلهية أو يكتبون فى المعاملات والمكاسب أولا
يشغلون بالكثافة ولكنهم إذا غربت عنهم صفة واحدة هى صماء انقلب الله لم
يخسوا من الصوفية ولم يسلوكوا أصههم فى عداد أهل الصوف بسمة أخرى من
سماتهم المشهورة ..

إن الزينة الصوفية الخاصة هى مزية الإيمان بالله على الحب لأعلى الطمع فى
الثوب أو على الخوف من الحساب والعقاب ، ومثلهم فى ذلك مثل الفرد المثالى فى
بيئته الاجتماعية فإن الناس عامة يقعون بواجبهم الاجتماعى الذى لا ينجور الخدر من
مخالفة اتفاق والأمل فى حيرات المجتمع ، ولكن الفرد المثالى يخدم البيئة الاجتماعية
بباعت من الغيرة التى لا تنظر إلى الحزاء بل تعمل وتأثير على عملها مع سوء الحزاء أو
مع اليقين من العقاب ..

وكذلك الصلة بين الصوفى وربه إنما هى صلة قائمة على المحبة لأعلى مجرد الطاعة
لأوامره وخوف من بواهبه ، فإن المحب يعطى من عبده فوق ما يؤمر به ولا ينتظر
الطلب ليستجيب إليه ، وكلهم يقول مع رابعة المدوية : **« اللهم إن كنت تعلم أننى
أعبدك طمعاً فى حلتك فأحرمنى بعم حلتك ، وإن كنت تعلم أننى أعبدك رهبة من
بارك عديى ببارك »**

وكل من نظم مهم شعرا عبر بكلمة الحب عن هذه الصلة الإلهية ، كما قال ابن
عرى :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائه فالحق ديبى وإيملى

أو كما قال ذو النون :

وأقصى وما مات إليك صابني ولا قضيت من صدق حدك أو طاري

أو كما قال الياقبي :

قلو شاهدت ذاك الخيال عيونا سكرنا وعنا عن جميع العوالم
ومد نشاوى من شراب محبة وراح بمكنون الهوى كل كأنم

وهذا «السكر» هو الذى يسمونه محمر المحبة التى حلفت قبل أن يخلق الكرم كما

قال عمر بن القارص :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق لكرم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا وور ولا نار وروح ولا جسم

ويرون أن المحبة لا توليهم حق الجراء لأهم لا يلهمون المحبة إلا سعة من لله

وفصل منه يستوجب المزيد من المحبة ، وفي ذلك تقول رابعة العدوية

أحبك حين حب الهوى وحيا لأنك أهل لدا
فأما الذى هو حب الهوى فشمع يدركك عمر سواكا
وأما اسى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
وما اخمد فى ذا وفى ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا ودكا

وسنا يعرف لغة وسعت من شعر الحب الإلهى ما وسعته اللغة العربية كثرة وتعددا

فى الأساليب ، فإذا أصبحت إليها لغات الأمم الإسلامية كالفارسية والتركية والإردية
ولغات أهل أملايا رجع ديوان هذا الشعر على المظلوم منه فى جميع لغات العالم بلا
استثناء الأناشيد الدينية التى ترتل فى المآب وقد اشتهرت المهد قديماً بكثرة قصائدها
وأشيدها ولكنها لم تستثن بعد دخول الإسلام إليها عن توفير دحيتهما من تدث
القصائد والأناشيد مترجمة الشعر الإسلامى واقتباسه فى دعواتها وصلواتها فترجم
تاجور قصائد أستاذه «أكبر» وترجم السردار جو كندراسنج Singh دعوات
الأصهارى عبدالله إلى اللغة الإنجليزية وقال المهاتما غاندى فى مقدمة الترجمة «أن
المترجم حدير بالهتة لأنه سر لنا أن نقرأ أقوال الصوفى عبدالله الأصهارى بالغة

الإحسانية . ولقد أعطى الإسلام العالم حبة من الصوفيين لا يقنون عن الهديين
ومسيحيين ، وأنه بحسب في هذا الوقت الذي يعرض لنا الجحود في صورة الدين
أن يذكر أمسا بحر ما أخرجته العقول المتدنية بجميع الأدباني وحير ما قالته . وألا
يظل كتلك الصعدة التي تظن في بئرها أن الكون كله ينتهي عند جذرائها فلا
يحطرن بنا أن ديانتنا وحدها هي التي تحتوى الحقيقة كلها وأن ما عداها ريف
وناطل . . .

ويسمى أن يكون شيوخ التصوف هذه الكثرة في بلاد الإسلام . فلا يستعرب
ذلك كما يستعرب في البلاد التي تدين بأديان تتوسط فيها الكهانة ومراسم العباد بين
المرد ومعبوده . لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يسمح باستقلال الصلة بين
المخلوق والمخلوق ويستطيع العابد فيه أن يتوجه إلى الله بضميره فردا بغير وساطة من
سادن ولا شعائر في محراب . ومنى تفتح للمسلم طريق الاتصال بالله على شريعة
الحب واستقلال الصمير فليس في دبه ما يحججه عن طلب الحكمة الإلهية من هذا
الطريق ولا من التعمق في استطلاع الحقائق وكشف الأسرار والكبر وفيها بين سماء
الله وأرضه من المعانيب والنعما كما تعلم من آيات كتابه ومن وصايا بيته ومن
فريضة التذكير على التعميم .

ويسمى لسبب آخر أن يكون الصوفية من المسلمين هذه الكثرة في بلاد الإسلام
كافة ، لأن الإسلام يرفض الرهبانية والانقطاع عن الدنيا فلا ملاذ فيه للفرد إذا ما
نه محتتمه وأكر على قومه ما يخالف طريقته في العقيدة إلا أن يلجأ إلى صميره ويتحد
لنفسه مذهبه الذي يحاسب عليه نفسه ولا يحاسب عليه سواه بين يدي الله .
إذا فرقا بين الصوفية والانقطاع عن الدنيا فالديانات الأخرى قد أخرجت من
الرهدين والسناك المنقطعين أكثر ممن أخرجهم الإسلام بغير مراء ، إلا أن الأمر يختلف
عدد للكلام على الصوفية الإسلامية ، فإن عدد الصوفيين ذوي الآراء والأقوال بين
المسلمين أكثر من أمثالهم في جميع الديانات الأخرى ، وإذا جمعت أقوال المتصوفة
في الإسلام ملأت الأسفار الكبار وطرفت كل باب من أبواب الحكمة الإلهية عرفه
المتدبسون ، ويتسع التصوف الإسلامي بأنواعه كما يسع بعدد المتصوفين . فإن

الصوفية كما هو واضح أنواع ومذاهب ، وكل نوع من أنواعها وكل مذهب من مذاهبها قد كان له أئمة وأشياخ بين الأمم الإسلامية ، وتلك مسألة معقومة بديهة فقد دان بالإسلام أناس من المود والفرس والطورانيين والحمانيين ، كما دان به العرب وأخوانهم من الساميين ، ولكل أمة مراجعها ولكل مراجع أثره في الوجهة الصوفية . فلا عجب أن يتسع الإسلام لكل نوع من أنواع الحكمة الصوفية عرفه المتديبون .

فالصوفية من حيث الموضوع بوعان عظيمات - نوع العقل والمعرفة وبيع القلب والرياضة ، والصوفية من حيث موقفها من الدنيا كدلت بوعان - نوع ينحطها وينبذها ويوع يمشي فيها ويصل منها إلى الله ، ويتأدى من الحق إلى الخائق جل وعلا وكل هذه المذاهب عرف في الإسلام على أنواعها من الصوفية العقليين طلاب المعرفة من يحسب في عداد الفلاسفة الأعداد ، ولا يعرف في عقول الفلاسفة عقلا يعوق عقل الغزالي في قوة التفكير ، ولا يعرف موضوعاً من موضوعات الحكمة الإلهية لم يلتصق إليه معنى الذي بين عربي ، وقد قيل أن د. النون المصري كان في طبقة جابر بن حيان في علوم الكيمياء ، وأنه كان من الباحثين في طلاس الآثار الفرعونية ..

وهؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل إلى غاية حدوده ولا يتهيبون الشكوك والاعتراضات بل يقولون بلسان العراقي أن الشك أول مراتب اليقين ، ولكم متى بموا بالعقل غاية ملكهم بشوة الوجدان فأسلموا أمرهم كله إلى الإيمان . وليس اشتغالهم بالعقل مانعاً لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية وإما يشتهرون بأفكارهم لأنها الصلة بينهم وبين تلاميذهم ومريديهم وقراشهم وتغلب شهرتهم بالفكر على شهرتهم بالرياضة ..

أما الصوفيون القليلون فهم يتمتعون المعرفة المباشرة بالرياضة النفس على وجه الشهوات وعمدهم أن شهوات الإنسان هي الخائل بينه وبين الور فإذا ملك رماها وأفلت من قيودها تكشف له الور ووصل إلى مرتبة العزيرين ، وأعد صماء النفس عن حراسة الدارسين ومحوث الباحثين ..

والصوفية من حيث علاقتها بالدنيا بوعان كما تقدم نوع يرفضها لأنها وهم

وعشاوة مريفة كالطلاء الذى يوصع على المعدن الخسيس ليحيل إلى الأنظار أنه معدن نفيس . وبوع آخر يحوّص عمار الدنيا ليتبينها ويمتحن نفسه تحاربها وغوياتها وعنده أنها حميلة لأنها من خلق الله . وكل ما يحلقه الله حميل

وهذا النوع من الصوفية أقرب أنواعها إلى الاسلام . ونيس على اسلم حرج أن يرى لدنيا ظاهراً خداعاً وباطناً صادقاً أجمل من ظاهرها . فإن قصة الخصر مع موسى عليها السلام تدور كلها على العروة بين الطواهر والواطنى لأحكام والنيات

إلا أن الصوفى المسلم يقاوم مطامع الدنيا لأنها تمحجه عن حقائقها العليا . ويصبرون المثل لذلك بالمرال الطمآن فى الصحراء . فلا حرج عليه أن يطلب الرى من ماء ، ولكنه إذا غفل عن نفسه لم يسلم من خداع السراب . فانقد إلى الهلاك . فاذا أصابه العطش فليعلم موارد الماء وليكر على حذر من موارد السراب ، وليفرق كما يقولون بين سرب لاشراب فيه وبين شراب لاسراب حوله ، وتلك هى الرخصة التى نستمد من فح الشبهوات . وكثيراً ما يبحث الأوروبيون فى التصوف ويقصدون به الكلام على أشخاص المتصوفين الذين ظهروا فى البلاد الإسلامية . وقليل ما يبحثون فى هذا التصوف ويقصدون به مذاهب التصوف التى يسمح بها الإسلام

فالدين الإسلامى قد انتشر فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية . وقد تسرب بعضها إلى أثناء تلك الأقطار واحتفظ بعضها بالمقائد الإسلامية من طريق الوراثة والاستمرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الأحكام فاقترن فى أقوال أناس من المتسبين إلى الإسلام بما يجوز وما لا يجوز . وعلى الأهمية يمكن أن يقال إن الإسلام بكر من تلك المذاهب مذهبين منتشرين فى الصوفية على عمومها . يسكر مذهب الخلول كما يسكر المذهب القاتل بوحدة الوجود . فلا يفر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله فى حمد إنسان ، ولا يفر مذهب القتل بقاء ليدات الإنسانية فى الذات الإلهية . وإذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء فسره بقاء الشهوات أو بقاء الأناية وحلول محبة الله محلها من القلوب والأرواح . ولا يفر الإسلام مذهباً يقول بوحدة الوجود . أو يقول بأن الله هو مجموعة هذه

الموجودات . وأن الكون كله سبائمه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله . ويد
أحاز المتصوف المسلم معنى من معاني الوحدة الوجودية فهي عده وحدة الفصائل
الإلهية ووحدة التوحيد . وقد يوفق المسلم الصوفي بين الظاهر والباطن فيقول إن
اشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب . وأن الحقيقة من غير لشرعية إباحة
وفسوق ، وقد يوفق بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية مذهب جميل معتدل بين
الطرفين . فليس الزاهد من لا يملك شيئاً ، بل الزاهد عده لكن لا يملكه شيء فهو
ملك للدين غير مملوك لها بحال ..

وظل المتصوفة والمتسبون إلى الطرق الصوفية من المتأخرين يرون من القول
بالحلول ووحدة الوجود واستقاط التكليف ويعتزلون من يقول بها على وجوها المنقولة
من سادات الوثنية . ولوحظ ذلك في القانون الذي استشر فيه شيوخهم وصدر في
الديار المصرية بلأئمة الطرق الصوفية (سنة ١٣٢٠ هجرية و ١٩٠٣ ميلادية) وتقرر
المادة الثانية من بابه الخامس : « أن كل من يقول بالحلول أو الاتحاد أو سقوط
التكليف يطرده من الطرق الصوفية كافة » ..

وهذا العارق للعامل بين الصوفية الإسلامية والصوفية الدخيلة هو الذي وهم
مربطاً من المستشرقين أن التصوف كله مستعار من الهند وفارس أو من الأفلاطونية
الحدسية . وهو قول يصدق على مذهب الحلول ومذهب وحدة الوجود ولكنه
لا يصدق على مذاهب الصوفية التي تقوم على الحب الإلهي والكشف عن الحقائق من
 وراء الظواهر . فهذه الصوفية أصيلة في الإسلام يتعلمها المسلم من كتابه ويصل إليها
وولم يتصل قط بفلسفة البراهمة أو فلسفة أهلوطيس . لأن أشواق لنروح الإنسانية
قسط مشترك بين بني آدم لا تتفرد به أمة من الأمم ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل
الاستيعاب دون سائر العقائد الدينية والصوفية العربية مارحت صوفية الهد القديمة
وصوفية الأفلاطونيين بالاسكندرية . ولكنها أصابت إليها كما أحدثت منها ، ولا حاجة
بنا إلى تعقب التواريخ والأسايد لتقرير هذه الحقيقة البينة . فإن عاصر الصوفية
الإسلامية مثبوتة في آيات القرآن الكريم محيطة بالأصول التي تفرعت عنها صوفية
اليودية والأفلاطونية والمسلم يقرأ في كتابه أن « ليس كمثله شيء » وهو السميع

لصيره فقرأ خلاصة العلم الذي بعلمه دارس اللاهوت في كتب القديس توما حيث يقول : إن الله مبين للحوادث وأنه يعلم بالنتيجه والأبعاد عن مشايبتها ، أو يعلم بما ليس هو ولا يعلم هو علمه في ذاته أو صفاته . أيا كان المصدر الأول الذي استقى منه القديس توما أصول هذه العقيدة

ويقرأ المسلم في كتابه

﴿ فَعَرِّضُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥١ ﴾ (سورة الذاريات)

فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذية حين يؤمنون أن ملايسة العالم بذكر سعادة الروح وأن الفرار منه أو الفرار إلى الله هو باب النجاة ..

ويقرأ المسلم في كتابه .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ٥ ﴾ (سورة الحديد)

﴿ وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَمُوجُهُ اللَّهِ ٥ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ٥١ ﴾ (سورة ق)

فلا يريد المتصوف إلا التفسير حين يقولون إن الوجود الحقيقي هو وجود الله وأنه أقرب إلى الإنسان من نفسه لأنه قائم في كل مكان يصل له كل كائن

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أُبَسِّحُ بِحَمْدِهِ . وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ٥ ﴾ (سورة الاسراء)

ولله بخلق ويأمر فهو فعال مريد وليست إرادته ماضية من الخلق كما يرى الفلاسفة إذ يقولون إن الإرادة القديمة لا يشأها اختيار حديث أو مخلوق حادث

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ٥ تَسَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٥١ ﴾ (سورة الأعراف)

ومما يعلمه المسلم من كتابه أن عقل الإنسان لا يدرك من الله إلا ما يعهده إليه

لأنه تعالى :

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ﴾

(سورة البقرة)

ومنه يعلم الخلاف ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعدم اشترية
لأنه يقرأ مثلاً واصحاح هذا الخلاف إما كان من الحصر وموسى عليهما السلام من
خلاف :

﴿مَوْجَدًا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ

رَحْمَةً مِّنْ حُدِيدٍ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝١٥٠ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ

هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي بِمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝١٥١ قَالَ

إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝١٥٢ وَكَيْفَ صَبْرُ عَلَىٰ

مَا لَمْ يُحِط بِهِ ۝١٥٣ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ

صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝١٥٤ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا

تُكَلِّمْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝١٥٥

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّيِّدَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَتَهَا

لِنُفِرَّكَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝١٥٦ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ

أَنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝١٥٧ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا

نَسِيتُ وَلَا تَزِمْنِي مِنْ أَمْرِي صَبْرًا ۝١٥٨ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ

إِذَا لَبِيا غُلَامًا يَتَتَلَّهُمَا قَالَ أَكَلْتَ نَفْسَ زَكِيَّةٍ بِعِيرِ بَعِيرٍ

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ذُوًّا ۝١٥٩ • قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝١٦٠ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ

بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٦٨﴾
 فَاطْلُقَا هَاجًا إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْتَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا
 أَنْ يَضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَخَفَصَّ فَأَقْلَعُوهُ
 فَلَوْلَا أَنَّهُمَا لَبَسَتَا لَوِشْتَ عَلَيْهِمَا بَرَّاقٌ ﴿٦٩﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
 وَبَيْنَكَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنِي إِلَّا رُبُلٌ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٠﴾
 أَمَّا السَّعِيَّةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ
 أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧١﴾
 وَأَمَّا الْخُلُومُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشَبَا أَنْ يَرْهَقَهُمَا
 طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٢﴾ فَأَرَادْنَا أَنْ يُسَوِّجَا رِبْعًا غَيْرًا مِنْهُ
 زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٧٣﴾ وَأَمَّا الْخَبْرُ فَكَانَ لِطَلْعَيْنِ
 يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
 صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا
 رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَاكِرِينَ ﴿٧٤﴾
 فَسَطِعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٥﴾

(سورة الكهف)

وهذه آيات بينات يقرؤها جميع المسلمين في كتابهم الذي لا يخفى به فريق
 منهم دون فريق وبينهم ولا شك أناس مطوعون على التصوف واستخراج الأسرار
 الخفية والمعاني الروحانية من طوايا الكلمات ، فإذا عمد هؤلاء إلى تفسير تلك الآيات

وما في معانيها فليس أيسر عليهم من الوصول إلى لباب التصوف الذي شملت به حواطر الحكماء في جميع الأحوال^(١) .

وإذ آمن الصوفى المسلم بالكشف عن الحقائق من وراء الظواهر فهو لا يتهنى من لتعرقه بيها إلى اسقاط الشريعة أو اسقاط ما تأمره به من التكليف أو إباحة ما تحظره من المحرمات ، لأن الحقيقة عده لا تنقص الشريعة بل تنمىها وتكشف ما استتر من حكمها ، وتظهر ما حجب من أسباب طواهرها كما فعل الخضر في كل قصة حفيت عن صاحبه فكشف له من حقيقتها عن حكم الشريعة فيها وقد كان أقطاب لصوفية يقيمون الفرائض ويصلون ويصومون ويحجون إلى البيت ويعطون لصدقات ، وتحدث رجل أمام أبي القاسم الحيد بحديث المعرفة فقال إن أهل معرفة بالله يصوبون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله فكان الحيد : إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهذه عدى عظيمة وأبى يسرق ويرى أحسن حالا ممن يقول هذا وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال لبردة إلا أن عا في دوما ، والله لاؤكد في معرفتي وأقوى في حالي^(٢)

قال صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف : وأجمعوا على تعجيل الصلوات وهو الأفضل عندهم مع التيقن بالوقت ويرون تعجيل أداء جميع المفترضات عند وجوبها لا يرون التخصير والتأخير والتعريض فيها إلا لعدم ويرون تقصير الصلاة في السفر ومن أدمس السفر مهم ولم يكن له مفر أتم الصلاة ورأوا العطر في السفر جائزاً ويصومون ، واستطاعة الحج عندهم الإمكان من أى وجه كان ، ولا يشترطون الزاد والراحلة فقط قال ابن عطاء الاستطاعة اثنان حال ومال . فمن لم يكن له حال يقله فقال يبلغه وأجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرف وغير ذلك مما أباحتها الشريعة ،

وليس من الإنصاف أن نحمل على التصوف أوزار الأدياء واللصقاء الذين

(١) من كتاب أثر العرب في الحضارة الأوربية للمؤلف

(٢) طيفات الصوفية للسلي

يبدسون في صغوفه ففاقاً واحتيالاً أو جهلاً وهصولاً . فإنه ما من محلة في التقديم
واحدث سلئت من أوزار اللصقاء الذين يتمون إليها من غير أهلها . ولكن
انتصوف على حقيقته الكاملة هو حرية الصمير في الإيمان بالله على الحب والمعرفة .
ولوع هذه امرته هو فصلة الإسلام الذي أطلق ضمير الفرد من عقال السيطرة
الروحية ويسر له أن بلوذ سريره هذا الملاد الأمي الذي لا يداخله فيه حبيب أو
وقب غير حسيبه ورفيه بين يدي الله . ولا عي عن مثل هذا الملاد في رسم من
الأرمة ولا في جماعة من الجماعات ، ولا سبب الأرمة التي تنبئ فيها الصائير انصوفية
بالفلق بين الجماعات المصئلة على سوائها ، جهلاً بحقيقة الدين أو حموداً على المألوف
من بقاء الأقدمين . ففي مثل هذه الأرمة لا يستغنى صمير الإنسان عن ملاد يعتصم
به ويأوى إليه بين جماعته وهو عامل فيها حريص على هدايتها غير معتزل لشئوها ، ولا
حاجة بالمسلم في أمثال هذه الأحوال إلى ابتداع شيء في أصول دينه فإن أصول دينه
الأولى قائمة على حرية الصمير تنهيه أن يستسلم لما يأباه رغبة أو رهبة أو بخافة لغير
الأكثرين ، إذا كان الأكثرون لا يعلمون ..

وإن أساساً من أساء العصر الحاضر بحسبون أن الصوفية بنفسها وقصبتها تراث
قديم مهجور ولكنهم يعلمون كل يوم - وسيعلمون عدا - أن الإنسان لم يستغنى في
حياته يوماً واحداً عن الصوفية في ناحية من نواحيها . لأن رياضة النفس ضرورة
لأرمة كرياضة الجسد . وأكبر ما يلقاه الناس في العصر الحاضر طمعا هو إفلات رمام
الإنسان المعصري من يديه ، ولا عي له يوماً عن ذلك الزمام . ولا عي له في سياسة
حسده عن بعض الحرمان باختياره وعن بعض الشدة برصاه ، وأخرى أن يكون
ذلك شأنه في سياسة النفوس ..

واهتمع الإسلامي أحق المجتمعات بالتصوف وأولاه بحرية الصمير التي يسمو
بها الإنسان كلما أثر لهسه الإيمان بالله على الحب والمعرفة ولم يقع محمد لثواب
و لعقاب لأن الإسلام يأتي له الرهابة التي اعتصم بها أساس في العصر القديم ،
ولا يرضي لها بعض المذاهب « الوجودية » في عصره الحاضر وقد بدأ كان صاحب
الصمير يبقطان يتزم بمجمعه فيجبره إلى صومعة الدين ، وحدبناً تبرم بعض الناس

في المعرب معجنتهم فاعتصبوا بها غمدهم الوحدية التي يلحاً إليها الفرد كما اشتد عليه طغيان العرف الاجتماعي ، متطعاً من قيوده تارة إلى الإباحة وتارة إلى عرلة الوجدان ولكن الإسلام يفتح لصميم الفرد مسكناً واسعاً غير الرهائيه وغير لوجودية كما فيها من حير وشر ، ويقم له صومعته في أعماق نفسه ولا حدود لها غير حدود الكون بما وسع من سماوات وأرضين ..

لا حرم وسعت سباحة الإسلام عقائد المتصوفة وهم في رحابه لمسيحة لا يفارقونها ولا يمترون ديارهم حيثما أتوا إليها ، ونشأ في عصور الإسلام جمهرة من أقطاب الصوفية المتكبرين والمترفين لا تصارعها جمهرة من أبناء السهل العالمية في وفرة حدودها ولا في ذخائر حكمتها ..

وعلى كثرة الصحابة من المتصوفة في العالم العربي لم يذهب أحد منهم صحبة لدهبه قط غير استثناء القصصيين المشهورين اللذين قصى فيهما بالموت على اخلاص والسهوردي ولم يكن لها ثالث في مئات السنين منذ نشأ التصوف في الإسلام إلى هذه الأيام . ولعل هاتين القصصيتين ما كانتا لتشتهرا هذه الشهرة لولا المرأة والسرقة فيهما هو من قصصهما ، ولو صح أن الخلاص والسهوردي من صحابة الصوفية ، وهم في الواقع صحبة الغنى وصحية السياسة ، وعليهما لمصر كبير فيا جاء كل منها على نفسه ، بعد اليأس من ثوبته واللحاح في دعواه

وعلى الباحث عن العلة الصحيحة في مصير الرجلين أن يذكر أن إحدى قصصيتين حدثت في زمان فتنة القرامطة وأن الأخرى حدثت في زمان الحروب الصليبية ، وأن الخلاص والسهوردي قد احتلطا بمعارك السياسة من قريب واتخذوا فيها الأحزاب والأعداء ، واقتحما مواقع الشبهة ومواضع الزينة غير منحرجين ولا مترشحين بعد طول الاعضاء عنها ونمهد معادير التوبة لها . ولم ينهم أحد مثل ما اتهمتا به ولقى من قومه مثل هذه المداواة ومثل هذا السباح

ولا يزيد في قصة الخلاص على رواية أحبارها فيما يمس قصصته ورواية كلامه كما جاء في كتبه وقصائده ..

قال الحافظ أبو بكر أحمد على الخطيب في تاريخ بغداد كان جده محسباً اسمه محبى من أهل بيسان فارس . نشأ الحسين بواسط وقيل منسرح وقد قدم بغداد فحافظ للصوفية وصحب من مشيختهم الحفيد بن محمد وأنا الحسين التوري وعمرا المكي . والصوفية مختلفون فيه ، فأكثرهم نفي الخلاص أن يكون مهم وأنى أن يعد بهم ، وقبله من متقدمهم أبو العباس بن عطاء البغدادي ومحمد بن حبيب الشيرازي وإبراهيم بن محمد النصر آبادي النيسابوري وصاحبوا له حاله وتدبروا له كلامه حتى قال ابن خفيف . الحسين بن منصور عالم رباني ومن بهاء عن الصوفية نسبة إلى الشجيرة في عمله وإلى الزبدقة في عقله ، وله إلى الآن أصحاب يسبون إليه ويعنون فيه . وكان للخلاج حسن عبارة وحلاوة منطق وشعر على طريقة التصوف .

ثم روى الخطيب بعض ما اشتهر عنه من أخبار السحر وما أنه يجرح الناس فأكهة لثناء في الصيف فأكهة الصيف في الشتاء ويمد يده إلى الهواء فيجدها مملوءة دراهم عليها مكتوب : قل هو الله أحد ، ويسمونها دراهم القدرة ، ويجبر الناس بما أكلوه وما صنعوا في بيوتهم ويتكلم في صائرتهم ، وروى في أخبار منكرة من قبلها أنه بعث رجلاً من خاصة أصحابه وأمره أن يذهب إلى بلد من البلاد يدخل ، وأن يظهر لهم العادة والصالح والزهد ، فإذا رأهم قد أقبلوا عليه وأحبوه واعتقدوه أظهر لهم أنه قد عسى ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد تكسح ، فإذا سحر في مساوئهم قال لهم : يا جماعة الخير . أنه لا ينبغي شيء مما تعملون ، ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له إن شاءك لا يكون إلا على يد القطب ، وأقبل الخلاج حتى دخل البلد فأظهر الرجل شعاعه على يديه ، وخرج منه الخلاج ووراه أيتام البلد من الكبراء والعامة يتوسلون إليه أن يقيم بينهم ولهم ما يشاء ...

وبقل المؤرخون له ومهم الخطيب وابن الأثير وابن كثير أن الوزير حامداً رأى كتاباً يسقط فيه الخراج ويبدل بمسكه مناسك من عبده تتخذ في البيوت ، رسالته القاصي أبو عمر : من أين لك هذا ؟ قال من كتاب الإخلاص للحسن المصري ، وكان القاصي قد قرأ الكتاب وليس فيه شيء مما قال

وسب إليه ، وتناقله المؤرخون ، أنه كان يسمع القرآن ويقول يحكي أن
أول من مثل هذا ، وشوهد وهو يحط في صفحات بين يديه سوراً يعارض بها القرآن
ولحقت به شبهات في مسلكه مع أهل بيته حدثت عنها امرأة به سليمان
فقات كست بيلة بالغة في السطح ، واسة الخلاح معي في دار السلطان وهو مع ،
فلما كان في الليل وقد غشي هبت مدعورة مسكرة لما كان معه ، فقال إنما جئت
لأوقفك للصلاة ، ولما أصبحت رلت إلى الدار ومعى بيته ، ونزل هو فلما صار على
الدرجة حيث يراما وراء قالت بيته اسجدى له ! . فلت لها أو يسجد أحد
لغير الله ؟ وسمع كلامى لها فقال . نعم . إله في السماء وإله في
الأرض . قالت ودعاني إليه ، وأدخل يده في كمه وأخرجها مملوءة مسكاً فدفعه
إلى فضل هذا مرات ، ثم قال : اجعل هذا في طيبك ..

وسب القمص عليه أن الورد حامد بن العباس انتهى إليه أن الخلاح قدموه على
جماعة من لحشم والحجاب في دار السلطان وعلى عليان نصر القشورى الخاحب ،
وانتشر أصحابه وتفرقوا في الواحي ، وعرضت علة للمقتدر بالله في جوفه وقف
الخاحب نصر عن خبرها فوصف له الخلاح واستأذنه في إدخاله إليه فأذن له ووضع
يده على الموضع الذى كانت العلة فيه وقرأ عليه فاتمق أن رالت العلة ، ولحق والدته
المقتدر بالله مثل تلك العلة فشمعها ، وشاع عنه أنه أحيا بعماء لولى انمهد بعد موتها ،
وقام للخلاح بذلك سوق في الدار وعند والدته المقتدر والخدم والحاشية .

أما ما أخذ عليه من كلامه منه قوله في كتاب طاسب الأرن أنه هو الحق ، وقوله
في أبيات :

باسر	سر	يلقى	حقى	ينفى	على	وهم	كل	حى
وظهرا	باطنا	تجلى	لكل	شئ	نكل	شئ		
إن	اعتذارى	إليك	جهل	وعظم	شك	وفرط	مى	
ياحملة	الكل	لست	عبرى	فما	اعتذارى	ادن	إلى	

وقوله

سبحان من أظهرنا سوته مر سى لاهوته الثاقب

ثم بدا في حلقه ظاهرا وفي صورة الآكل والشارب
حتى لقد عابه حلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

وكانت حركة الحلاج بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة وهي
فترة وافقت أيام فتنة القرامطة وقورة الزنج وشغب الحنابلة ، وله بينهم أشباع وأشناع
مصرفون في الأمصار ، فالتجعت إليه التهم مرة بعد مرة وتخرج القصائد والعهود من
يدائمه حتى تقوم الحجة القاطعة عليه . وحركم بعد سنوات من الإغصاء والمطاوله
عشده عبه القصيدة بما يستوجب عقاب المفسدين في الأرض وكان منهم نحو ثمانين في
ساحة القصاص فسلخوا مرة أخرى قبل إجراء القصاص عليه فأعادوا شهادتهم
بصوت جهير على مسمع من الناس ..

وعن في هذا الكتاب لاندريس قصية الحلاج ولا محصر مقالته ولا ما قبل عنه .
فيجوز أنه مشعوذ طامع في الملك توسل بالاستهواء إلى جمع الجموع وتأليب
الأنصار ثم نشرهم في أطراف البلاد وعدد مقامات التدبير والتصرف كقصص الخلافة
ودواوين الوزارة ، توطئة للوثبة عند سنوح فرصتها

• • •

ويجوز أنه من رمة الملامية الذين يحرصون للشبهات ويستدهونها هداً
وقصداً للتكفير عن خطاياهم وإبراء أنفسهم من مظنة السك طلباً لثناء الناس
عليهم .

ويجوز أنه رجل صغرى عليه لمة حفية أزجعت ولادة الأمر فأثبتوا عليه بالتلفيق
والإكراه جريمة لم يقرها ..

فكل وجه من هذه الوجوه يبي عن الإسلام دعوى المدعى أنه يضيئ صدره
ببفكر الصواب والمعاني الروحية ، وإذا عن أمير أو وزير من ولادة الأمر أن ينكب
إنساناً من خصومه لاحتلاب في الرأي والطريقة لم يكن له مناص من اتهامه بالهمة
التي تستحق العقاب في كل شريعة دينية أو دنيوية ، وأكبرها تهمة الفتنة والإفساد
في الأرض أو الإخلال بالسلم والخروج على دستور الجماعة

وقصة شهاب الدين السهروردى بسحة موحدة من قصة حسين بن منصور
الخلاص ، سواء فيما وقع منه فعلا وبما كان معطوفاً أو يقع منه ، أو معطوفاً أن يقع من
أمثاله في نزعاته وأحواله ..

عاش السهروردى في عصر الحروب الصليبية وفي أخطر مياديينها وهو مدينة حلب
عاصمة الملك الظاهر بن الملك صلاح الدين ، واشتهر السهروردى كما اشتهر الخلاص
بأعمال الخوارق والأعاجيب التي يعسبها بعضهم من السحر وبحسب الآخرون من
الكرامات ..

جاء في نجوم الزاهرة أنه وكان يعانى علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب
التبريجيات ..

وجاء في طبقات الأطباء أنه كان معرط الدكاء فصيح العبارة وكان عنه أكثر
من عقله ، ثم جاء فيه : ويقال أنه يعرف علم السيمياء ..

وروى ابن حنكان في وفيات الأعيان معقولا عن بعض فقهاء العجم ، وأنه كان
في صحبته وقد خرجوا من دمشق قال فلما وصلنا إلى القابون - القرية التي هي
باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب - لقينا قطع عجم مع تركيائي ففنا
للشيخ . يامولانا . نريد من هذه العجم رأساً نأكله ، فقال معى عشرة دراهم ،
حدوها واشتروا بها رأس عجم ، وكان هناك تركيائي فاشترينا منه رأساً ب ومشيئ
قليلا ، فلحقنا رفيق لنا وقال - ردوا هذه الرأس حدوها أصغر منها ، فإن هذا ما عرف
بيعكم ، يساوى هذه الرأس أكثر من ذلك ، وثقاولنا نحن وإياه ، فلما عرف الشيخ
ذلك قال لنا خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرصيه ، فخذنا نحن وبقى
الشيخ يتحدث معه ويطيّب قلبه ، فلما أعددنا قليلا تركه وتبنا وبقى التركيائي يمشى
حلمه ويصيح به وهو لا يلتفت إليه ، فلما لم يكلمه لحقه بعيط وجذب يده اليسرى ،
وقال أين تروح وتغلبى وإذا بيد الشيخ قد انحلت من عند كتفه وبقيت في يد
التركيائي ودمها يجرى ففهم التركيائي وتحير في أمره ، فرمى اليد وحاف ، فرجع
الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا ، وبقى التركيائي راجعا ، وهو يلتفت إليه
حتى حاد عنه ، فلما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى مدبلا لاعير ..

وكان بالسهروردي طموح كطموح الحلاج إلى السيادة والعظمة أصبح عنه لبعض صحبه ومهم الشيخ سيف الدين الآمدي الذي قال فيها حدث عنه .
 « جنمت بالسهروردي في حلب فقال لي لا بد أن أملك الأرض ، فقلت له
 من أين لك هذا ؟ قال رأيت في المنام كائن شرب ماء البحر فقلت . لعل هذا
 يكون اشتهاً للعلم وما يناسب هذا ، رأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ورأيت كثيراً
 العلم قليل العقل .. »

• • •

وسبب إليه فيما سبب من التهم التي أدعى بها أنه كان يدهي النبوة ، ولكنها تهم لم
 تتحقق أسأؤها لأن الروايات التي وصلت إلينا من سيرته في أواخر أيامه مليئة
 متضاربة حتى لقد رويت عن موته ثلاث روايات تقول إحداها انه مات صبراً
 باختياره وتقول رواية أخرى انه مات خنقاً وتقول غيرها انه مات مقتولاً بالسيف
 بعد صسه ، ولا تنفق الروايات على مشهد قتله ، مع ما قيل من التشهير به قبل
 دمه ..

غير أن القصة المتواترة أن الفقهاء رفضوا أمره إلى صلاح الدين وأبلغوه حرمهم منه
 على حقيقة ابنه الملك الطاهر وعلى سياسة ملكه ، فانتهى الأمر إلى دعوته للمناظرة
 بحصرة الملك فكان مما قاله في تلك المناظرة أن إرسال أبي محمد محمد عليه السلام غير
 مستحيل ..

وإذا تعمّر جمع أخبار القصة مما بدا واستتر منها فليس من العسير أن نعلم ما
 يجب على نفسه شاب كثير العطف قليل الحكمة ضرب اللسان مصطع الشعوذة
 والاستهواء ويخيل إليه أنه موعود بملك الدنيا وأن دعوى النبوة مفتوحة لمن يتبناها
 عمرته وفصاحته وقدرته على الإقناع بالبرهان أو بالكرامة ، وليس مما يحظر على
 أنال ولا مما كتبه المؤرخون أو أشاروا إليه بهذا الصدد أن المكرة الصوفية كانت
 دربة من درائع المحاكمة والقصاص ، وليس من أدب الصوفية أن يتعرض طالب
 الحقيقة لشبهة من الشبهات بين العامة يتلوع بها من يشاء إلى اتهامه وإثبات التهمة
 عليه .

والقصبتان - بعد - قد اشتهرتا هذه الشهرة بين المعنيين بالإسلاميات لأهم نادرتان في تواريح أُم الإسلام فإن لم تكن هذه الدرّة قاطعة بغيردهما فهي مثال للحوادث التي يساق فيها بعض الدعاة إلى مزالق الخطر ، ولا شك فيها حرية التصكير ولكنها مآرق السياسة في أوقات الخرج والريبة يرتطم بها من يتصدى لها ويتورط فيها ، وقلنا يسلم من بعض وررها وإن تراءى لقوم أنه صحيحة لأورارها

• • •

ين الإسلام قد وضع التصوف موضعه الذي يصلح به ويصلح من يريد به ، فليس هو واجب وليس هو مسموع ، ولكنه ملكة نفسية موحدة في بعض الطائعات لارمة لمن وحدث في طبائعهم ، وألزم ما تكون لهم حين تغترق بمقاييس الأخلاق ومعايير انقيم الروحية بينهم وبين مجتمعاتهم ، فإن الفرد إذا افترق ما بينه وبين مجتمعه من هذه القيم نجح بالرهابية ولا رهابة في الإسلام ، أو صاع فصائله على وفق صميمه وهو مقيم في مجتمعه لا حسيب عليه بينه وبين ربه ، وثبتت هي شريعة للإسلام الذي لاسلطان فيه مخلوق على مخلوق في طاعة الله

ومها تكن للنفس الإنسانية من ملكة خلقية أو روحية فتلك أمانة لا تفريط فيها ولا خير في المجتمع الذي يفرط فيها ويسلمها للصياغ ، وقد يجور إحياء الملكة الصوفية على ميكانات أخرى كما يجور التخصص في كل قدرة على غيرها من عوامل القدرة في الصياغ والمقول ، ولكنها لارمة التخصص التي لا هككك منها ، فاما التخصص والاحتفاظ وإما الإهمال أو الإنقطاع .

« وليس في التخصص - كما قلنا في كتاب الفلسفة القرآنية - ربحاً شئاً » وبشكر شئاً ، وإنما هو سبيل التعميم والاستفادة من كل ملكة في الدهن واللوق والروح ، ولا يوجب الإسلام التسكك على جميع المسلمين لأن أناساً منهم تخصصوا به ومقصودهم على مطالب الروح أو مطالب الحسد الأخرى ، ولكنه يجبره بالقدر الذي يثابره وهو القدر الذي لاغنى عنه في تدبير حياة الإنسان

« فالممتلكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن يثابرها إنسان واحد ، ولكنها يسعى أن تتال ، فكيف يمكن أن تتال ؟ »

« إنها لا تنال إلا بالتخصص والتدريب ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التدريب إذا سويتا بينها جميعاً في التحصيل والزمنا كل أحد أن تكون له أفساط منها جميعاً على حد سواء ..

« ولا تقصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التي لايسهل أحصاؤه ولا تخصصها ولكن نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والحسد ، وهي محدودة متقاربة في جميع الناس ..

« فهذه الملكات الحسدية - فضلاً عن الملكات العقلية والروحية - قابلة للمحو والمصاعمة إلى الحد الذي لا يحظر لنا على مال ولا نصده إلا إذا شهدناه

« وقد رأينا ورأى معنا ألوف من الناس رحلاً أكتع يستخدم أصابع قدمه في أشياء يعجز الكثيرون عن صنعها بأصابع اليدين يكتب بها ويشعل عيدان القباب ويصنع بها القهوة ويصعبها في الأقداح ويشربها ويديرها على الحاصرين ويسلك الخيط في سم الإبرة ويحيط الثوب المرق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمنى أو باليسار ..

ورأى ورأى معنا ألوف من الناس لاعبي البليارد في المسابقات العامة يتسلمون المعص ثم لا يتركوها إلا بعد مائة وخمسين إصابة أو تزيد ، ولعلهم لا يتركوها إلا من تعب أو محملة للاعبين الآخرين وهم يوجهون بها الأكر إلى حيث يريدون ويرسلونها بين خطوط مرسومة لاتدخل الأكر في بعضها ولا تحس اللعبة إذا لم تدخل في بعضها الآخر . عجب لو قال لك قائل ان هؤلاء اللاعبين يمحرون الأكر بسلك خفي لجاز لك أن تصدق ما يقول

« ورأينا من يقذف بالحرية على مسافات تقع حيث شاء ، ورأينا من يطرئ آثار الأقدام فيخرج منها أنراً واحداً بين عشرات ولو تعدد وضعه بين المئات ، ورأينا من يرمى بالأسلحة في الحبل الطويل فيطرقها حتى الإنسان أو الحيوان على مسافة أمتار

« هذه هي الملكات الحسدية المحدودة ، وهذه هي آماد الكمال الذي تلج إليه

التحصيل والمراة والتوزيع ، فما القول إذا حكنا على الناس جميعاً أن يكسبوا أعضاءهم من هذه الملكات ؟ إنا نحكي هذا ألبا خطأ ومعلمهم به عن العمل المعبد ، ولكننا نحكي كذلك إذا حجرتنا على إنسان لأنه أفس ملكة من هذه الملكات الحسدية ، ولو جار في نفسه على ملكات أخرى ينضها الآخرون .

« إذا كان قد جاروا بالقوى الحسدية حدودها المعهودة بالمراة والتحصيل ، فما لظن بالقوى الروحية أو العقلية وهي لا تتقارب في الناس هذا التقارب ولا تقف عند هذه الحدود ..

« وإذا كان طالب القوة الروحية يؤثرها على جسده فلماذا يلومه وسعى عليه ومن لاسعى عن اللاعب إذا أثر المهارة في اللعب على المهارة في مون العقل أو عن الكمال في مطالب الروح ؟ ..

« إذا لما من يجور على جسده لأنه يضر الناس إذا اقتلوا به أجمعين من واجبت أن يلوم كل ذي ملكة وكل ذي فن وكل ذي رأى من الآراء . فما من واحد بين هؤلاء الا وهو يضر الناس إذا اقتلوا به أجمعين ..

« وما لاجدال فيه أن نوازع الحمد يحجب المكر عن بعض الحقائق الاختصاصية فضلاً عن الحقائق الكونية المصفاة ، وما لاجدال فيه أن شوغل العيش وهموم الأسرة عائق من بعض مطالب الإصلاح في الحياة اليومية ، فضلاً عن الحياة الإنسانية الباقية على مر الدهور ، وما لاجدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية ، له حق كحق المصارع والملاكم وحامل الأثقال في استكمال ما يشاء من ملكات الإنسان ، ولستنا على حق إذا أعطينا عليه أنه جار على جسده أو بدات عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع إذا نقصت فيه ملكة العن أو ملكة العلم أو ملكة الروح ، ولو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس ولكن لا بد من المصبرة مع هذا ، ولا بد من المتفرغين لها إذا أردنا البقاء .

« ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الرشد في الحياة . ولكن لا بد من هذه التزعة في بعض

ابن ميسرة ، وإلا قصرنا عن الشأ الأعلى في مطالب الروح وقدنا ثمرة التخصيص أو
ثمرة القصد الحيوى الذى ينظم لنا ثروة الروح وثروة العقول وثروة الأبدان والقصد
الحيوى مكفول بشريعة القرآن في كل مطلب من هذه المطالب الروحية ، فهي مساحة
لمن يعيقها وهي لاتعرض على جميع المسلمين ، ولابد من هذه الراحة ولا بد من
هذا الإعلاء فلها مجريان بالقدر الذى يعيد ويعم الصبر في كلتا الحالتين

المذاهب الاجتماعية والفكرية

إذ اتسعت الديانة لقبول المذاهب الاجتماعية والفكرية فهي إحدى ديانة
تختلفان ويبلغ الاختلاف بينهما حد التناقض في هذه الوجهة

فهي إما ديانة تنعص بدها من أعمال الدنيا وتتجرد بصائر أنسها لمطاب
الروحية أو المطالب الأخروية غير الدنيوية

أو هي ديانة نظرية إلى الدنيا وتقيم قواعد الإصلاح الاجتماعي على أسس واسعة
الطاق ثم توحى على الناس أن يتحبروا الأوقات لتطبيقها على حسب دواعيها
ومطالب البيئات التي تتجدد فيها .

والمفرد في المقابلة بين الديانات أن المجتمع الإنساني يتطلب نصيبه من الديانة وإن
لم تشمل على نصوص تتعرض للسياسة الاجتماعية . لأن الديانات جماعية وفردية ،
بل هي الأرم للجماعة وأولى بالقيام بين طهراتها لأن صوائر الأفراد لا تنزل بأعمالها عن
شركائها في الحياة الاجتماعية ، وعلى ما فيها من الصلاح والفساد تنتظم تلك الحياة أو
يتنفس فيها النظام ..

وقد كانت ابرهمية ديانة «غير دنيوية» لأنها تقوم في حوهرها على سوء العقيدة في
الدنيا والإيمان بطلانها ، وعلبة الوهم على مظاهرها وحماياها ، ولكنها تعرضت
للمجتمع ففسسته إلى طبقات وميزات كل طبقة منها ترميتها في الحكم والمعيشة ،
وداحت الناس في المساكن والمطاعم فلا تعارفهم في عمل يمتلونه أو حركة
يتحركونها

والمسيحية لم تعرض للتشريع ولا للسياسة الاجتماعية ، لأنها شأنت في بيئة
ترجع بشرائعها الدينية إلى الدولة الرومانية التي قيل عنها أنها أم الشرائع في الزمن
القديم ، وترجع بشرائعها الدينية إلى الهيكل اليهودي الذي يطلق اسم الشريعة على
الدين كله . لأن الاعتقاد عنده قائم كله على التشريع ، ومع هذا ظهرت في طلال

المسيحية دعوى الملوك الذين أقاموا حكمهم على الحق الإلهي ، وظهرت فيه مراسم
للسلطة الدينية أعم وأقوى من سلطة الدين في غيرها

فالدانات في الواقع العمل سواء في آثارها الاجتماعية ، وإن لم تكن سواء في
مبوضها التي تعرض لمساائل الاجتماع ، وكثيراً ما اصطدمت الدانات «غير الدينية»
بالمذهب الديني على غير معرفة بينها ، لأنها من أساسها تجعل الحياة الروحية
مناقضة للحياة الدنيوية كيهما كانت وعلى أية سنة نسير

والإسلام لم يتجنب مسائل الاجتماع لأن اجتماعها ليس من طبيعتها ، ولكنه
عنى هذه المسائل كما ينبغي أن تتركها عقيدة الإنسان في الجماعة البشرية ، وركز إلى
عقيدته أن توفق بينها وبين الصلاح الاجتماعي كما يقتضيه زمانه وتستوحى الجماعة كلها
من ضرورتها ومن قواعد دينها ، ولا فارق في النهاية بين المصلحة كما تهتدي إليها
الجماعة والمصلحة كما يوجبها الدين ..

والمذهب الاجتماعي شيء واقع معروف المادى والعلايات في العصر الحاضر ،
فعلاقة الإسلام بها كذلك شيء واقعي لاجتاجة به إلى الخصوص في النظريات والعروض
الدينية ، لأن مواضع التوافق أو التزاغ بين جميع هذه المذاهب وبين مصوص الدين
الإسلامي مسطورة معلومة من يريد بها وقد كشفت عنها تجارب العمل كما كشفت
عنها محوث الباحثين ..

هذه المذاهب الاجتماعية ، ومعها المذاهب الفكرية ، كثيرة تتفرع على أصولها
لكثرتي ، ولكنها إذا عدها منها هذه الأصول أعاننا البحث فيها عن البحث في
فروعها وبخاصة حين يدور البحث على القواعد الكبرى في الإسلام والقواعد الكبرى
في أمهات مذاهب الاجتماع والفكر في هذه الآونة

في أصول المذاهب الاجتماعية قد تتلاقى في هذه الآونة إلى أصول ثلاثة نجهد ٣
في جملة مناحيها ، وهي الديمقراطية ، والاشتراكية ، والعالمية

أما مذاهب الفكر فأكثرها ذكراً في العصر الحاضر مذهب التطور ومذهب
الوجودية أو مذاهب المتعددة بمقاصدها وإن اتحدت بعواها

وما الذى يجمع المسلم أن يعمل للديموقراطية أو يعمل للاشتراكية أو يعمل للوحدة
العالية ؟ .

وما الذى يجمع المسلم من أحكام ديه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوحدة
في صورتها المثلث ؟ .

إن المسلم أحن بالديموقراطية من أتباعها المحدثين والأقدمين . لأنه - مد أربعة
عشر قرناً - يدين بمبادئ الديموقراطية الأولى التي لا يصدق اسم الديموقراطية على
معظم من انظم بعيرها ، وهى التبعية الفردية ، والحكم بالشورى ، والمساواة بين
الحقوق ، والمساواة بالقانون ..

﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِلَىٰ يَمَا كَسَ رَبِّهِ ۖ ﴾ (سورة الطور)

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (سورة الشورى)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (سورة الحجرات)

﴿ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ إِيَّاهُ خُلَافًا وَمَا خُلِفَتُكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلَكُمْ شُعْبًا وَشُعْبًا ﴾
﴿ لَتَعْرِفُوهُنَّ أَنْ أُكْرِمَهُنَّ وَنُكَرَهُنَّ ﴾ (سورة الحجرات)

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (سورة الاسراء)

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر)

ومتى آمن المسلم بهذه المبادئ فهو صاحب الحق في اختيار ما ينصبه من نظم
الديموقراطية ، بل فرض عليه واجب الدين - مع واجب المصلحة - أن يصب
الحكم على نظام من النظم التي تنوار لها هذه المبادئ الأولى

وليس في عقيدة المسلم ما يصد عنه مذهب من مذاهب الاشتراكية الصالحة ،
لأنه يكره احتكار الثروة في طبقة واحدة ، ويكره احتكار التجارة في الأسواق
عامة ، ويعرض على المجتمع كفالة أبنائه من العجزة والصعاف والمجرومين ، ويحمن

أصاب أوكثر ، فإن لم يصب شيئاً فلا شيء له ولا شيء عليه . هذه الوجوه جائرة
قن أي فليسلك أرحمه ..

• • •

ورأي ابن حرم هذا مذهب يستند فيه الفقيه الفيلسوف إلى حجة من الدين يجوز
عده عن مافصله في كتابه ، فإن لم تكن قاطعة عند غيره فالدين الذي يستبطل أمثال
ابن حزم من أحكامه ذلك الرأي لا يقال عنه أنه يصد المؤمنين به عن الاشتراكية على
طريقتها الوسطى بين الطرفين ، وليس فيها ما هو أوسط وأعدل من يجمع احتكار الثروة
ويجعل للمحرورين حصة معلومة من الثروة العامة، وهو مذهب الاجتماع في شريعة
الإسلام ، وعليه تقوم إحدى مبادئ الخمس ، وهي الزكاة

ولنه لما ياسب رسالة الدين أن يستوعب مذاهب الاجتماع ولا يستوعبه مذهب
منها لأن هذه المذاهب الاجتماعية تأتي وتذهب ويعتريها التعديل والتبديل جيلا بعد
جيل ، ولا يغفل أن يتغير يقين الإيمان بحقيقة الوجود كلما تمررت خطوة من خطط
العقل في المصالح الاجتماعية مهما يبلغ من صوابها عند العمل بها وأجرائها في عمرها
الموقوت..

ومما يضاف من أمثلة هذا أن ما قدى الإسلام من الغريبين أخذوا عنه أنه يعرف
أعمال المصارف والشركات ومراقب التثمين والتعمير عما حرمه من الربا في تثمين
القروض ، وليس هذا النقد بصحيح لأن الإسلام لم يحرم قط عملا من أعمال التثمين
يخلو من الأضرار بل يحتاجون إلى القروض ويرأ من أكل أموال الناس بالباطل في
غير عمل مباح ، ولكن هذا النقد على أية حال يقضي بصوابه وحجته ولا تنقص
رسالة الدين على إطلاقها ، وإنما يقيس مصالح الأديان حقاً من يقيسها على اتساع
وامتداد ويظهر إلى النور كما ينظر إلى اليوم فلا يقضي بحكم من الأحكام فيها كأنه حتام
العصور والمصالح حمائم ، وهذا عصر الثروات الكبرى في أيدي أصحاب الأموال
يوشك أن يقضي ويدخله عصر ينادى فيه الاقتصاديون بملك الأمة لموارد الثروات
ويقول فيه آخرون بجمع حيازة الأموال العامة فضلا عن موائدها على قدر من الأقدار
كائن ما كان .

وقد استوعب الإسلام مذاهب الاقتصاد في عصر المصارف والشركات وقروضها وفوائدها دون أن يعوق مصلحة من مصالحها البرية في العرف المشروع ، ونمضى هذه المذاهب كما مضى غيرها فلا يؤوده بعدها أن يستوعب مذاهب الثروة في أيدي الجميع ولا مذاهب الثروة في أيدي الآحاد لا يمنع منها إلا ما يمنعه أولاً وآخرها من صرر أو صرار ..

وإذا كان دين المسلم لا يمنعه أن يتخذ من مذاهب الديمقراطية والاشتراكية ما يرى صلاحه ، فالوحدة العالمية أمل من آماله وعاية من عايات الخلق في اعتقاده ، وليس مبنع الأمر فيها أنها رأى لا يمنعه مانع من دينه

فالحق جل جلاله قد خلق الشعوب والقبائل لتتعارف وتصلح على العرف الحسن ولتحرف الرشيدة فتجمعها أسرة واحدة لا تفصل بين أبنائها غير التقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات)

ولا يسهل الإيمان بالوحدة العالمية على امرئ يؤمن بأن الله يصطلي سلالة من البشر دون سائر السلالات لغير هصلة تحسب لها في ميراثها غير انتسابها إلى أرومة معلومة ..

ولا يسهل الإيمان بهذه الوحدة العالمية على امرئ يؤمن بأن النجاة في ماضى العصور ومقبلها قسمة موقوفة على شرط لم يكل في غير زمن محدود لأناس محدودين ..

ولكن المسلم الذى يؤمن برب العالمين ويعلم أن النجاة قسمة لكل من سمع دعوة الهداية فاستجاب ها من الأولين والآخرين يسقط رواق الأخوة الإنسانية على العابرين والحاضرين ولا يطرد من حظيرة الرضوان إنسانا أتى الله على هدى دين من الأديان ..

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِدَّةَ رَيْبٍ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ ﴿
(سورة البقرة)

• • •

ويسيطر رواق الأخوة الإنسانية على جميع الأجناس والأقوام كما يسيطر على جميع الملل والديانات فلا حصل لعرقى على أعجمى ولا لقرشى على حشى إلا بالتقوى كما جاء في أحاديث النبي العرقى القرشى إلى قومه وإلى صحبه وآله ، وبس بين الأخوين من هذه الأسرة العظيمة رحمان لعير دى عمل راحح في مبران الخير والصلاح ..

وإن عقيدة المسلم عون له على الطوائف المذاهب الفكرية الحديثة وهو مذهب التطور - فرما أعانه ديه على قبول مبادئه دون أن يقيد به بقوى نتأجه التي تصح عد أناس ولا تصح عند آخرين ..

وليس في مذهب التطور مبدأ أهم من تنازع القاء وبقاء الأصح ، وليس النظر في هذين المبدأين محظورا على من يقرأ في كتابه أن صلاح الدين والدنيا لا يتفق أساس حقو، وإن الفساد لا يندفع عن الناس غير دافع ، وأن الإيمان يحمي صاحبه ويعميه صاحبه ، فلا إيمان لمن لا يبصر الله وينصره الله ..

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾
(سورة البقرة)

• • •

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَرْحٌ وَيَسَّعَ وَصَلَتْ وَسَيُجَدُّ بِذِكْرِكُمْ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٩﴾ ﴾
(سورة الحج)

وأول ما يعتقد المسلم في مسألة الخلق أن الله خلق الإنسان من سلالة من طين

السلالة بين مادة الأرض من طين وماء وبين هذا الخلق السوى القوم ، أيا كان معنى السلالة في الخبر الثالث ، غير مشوّل أن يأخذ معناها مأخذ الإيمان بالبقين

ويكاد مذهب التطور أن يتوب عن المذاهب الفكرية في التمثيل لاستعداد مسلم لتطوّر تلك المذاهب على عمومها ، إذ هو مذهب واحد يتعلّل في كل حاسب من جواب العلم ويجرى تطبيقه على كل شعبة من شهب الحياة الإنسانية فيما يعرض من العير والأطوار فإذا تمهدت له مسائل التفكير أمام العقل لم يكّد يعرض للعقل عائق دون مذهب آخر يتطوى فيه أو ينطق عليه

• • •

والوجودية مذهب آخر من المذاهب الفكرية يشبه التطور في هذا العموم الشائع بين الآراء وتطبيقات فإن الوجودية في حقيقتها وجوديات كثيرة تنشعب في كل ناحية من نواحي النظر والاعتقاد ، ولا تلتقي في غير قاعدة واحدة هي الاعتراض بحق الفرد في الوجود ، لأنه عند الوجوديين هو الكيان الثابت الذي تصدق عليه صفة الوجود الصحيح ، إذ لا وجود في غير الدهر والأنواع والأحساس والعصائل والأقسام ، ولكيها كلها أفراد متفرقة هي الموجودة بدواتها دون ما ينطق عليها من الأسماء و الماهيات ، في اصطلاح المنطقيين .

ويس على الفكر حرج أن يدحض رعم الزاعمين بوجود الفرد وطلان وجود لوع في الحس والبيان ، فهذا كله لا طائل تحته في النتيجة التي يجرح بها الوجوديون من تلك المقدمة ، وإنما نتيجتها أن الفرد مشوّل وأنه صاحب الحق الواحد على قدر هذه المستوية ، وأنه حليق ألا يدين لسلطان غير سلطان الصمير ، لأنه يحاسب على أعماله وبياته ولا يعي عنه أمر الجماعة ولا أمر دوى السلطان ، وذلك هو حق العقل في الإسلام ، بل هو فيه واجب العقل لا يفنيه أن يعتذر منه بطاعة السيف أو طاعة الجماعة أو طاعة الرؤساء والأحبار ، وقد وصل العقل الإنساني إلى هذا الحق ، وهذا لواجب ، بفصل العقيدة الإسلامية قبل أن يصل إليه من طريق الخذل العدم في المخرقة بين وجود الذوات ووجود الماهيات .

ولاد - في عصر النهضة خاصة من كلمة سواء بين الدين وهذه المذاهب

الفكرية فما هي رسالة الدين وما هي رسالة المذاهب ؟ مهما يكن من رأى في هاتين
الرسالتين هي وسعنا أن نقول أن الدين يسعى أن يطلق للمذاهب الفكرية مجالها في
المسائل المتجددة ، وأن المذاهب الفكرية يسعى أن ترفع للدين حرمة في المسائل
الباقية إن المذهب تذهب والدين باق . وليس بالمتدين ذلك الذى يحمل عقيدته
ليطرحها عند أول مذهب يروقه ويوائم حواطره في مشكلات يومه ..

• • •

وباستقراء الواقع فيما مضى وما حصر نتيج أن الإسلام قد قال هذه الكلمة
لسواء في عهود كثيرة ، وأنه كان في تلك العهود مذهباً فكرياً وريادة لأنه لم يقرر
أصلاً من أصوله يحجر عن العقل في تمكيه ، ولأن الخائب الذى وكله إلى الإيمان
من روح الإنسان هو الخائب الذى لا يستطيع الفكر أن يقول كلمة أولى بالاتباع من
كلمة الدين .

العُرف والعادات

دحت في الإسلام عند ظهوره أم شئ من أباء الحضارة والداوة تأصلت لهم عادات عريقة وآداب موروثة وتباعدت المسافة بين تلك الأمم في عاداتها وآدابها كما ساعدت في مواقعها وتحومها ، ومها حلفاء الفرس والبالين والعبيقيين والكعبانيين وانفراحة والبربر وقنائل البادية أو البوادي المتلاحقة بين وادي النهرى وودى النيل ..

عام تسع تعددت فيه الأزياء والمراسم والمواسم والأطعمة والأشربة والآداب والمصطلحات كما تعددت اليوم في القارة الواسعة بين شعوبها التي تنتمي إلى مختلف الحضار والأقوام ، فتعود المسلمون من اللحظة الأولى أن يوسعوا أكناف الإسلام لكل ما في هذا العالم ، لتشاسع من عرف وعادة ومن شعائر ومراسم ، وأصبح لعالم الإسلامي مرادفاً عندهم للعالم الإنساني عند النظر إلى اختلاف الظواهر والأشكال ، وأعفتهم هذه النظرة السمحة من جمود التقاليد التي تعزل بأصحابها عن انعام الإنساني أحياناً ، كلما أقام الدين وأتباعه رسماً طويلاً في معزل عن الناس فلم ينحرج المسلمون من تلك الظواهر والأشكال في غير شيء واحد وهو المساس بالعقائد والعبادات ، وكل ما راوه الناس بهذا من الهيكل والمذبح فهو حل مباح لا يسألون عنه ولا يبالون أن يترعوا فيه مزج الأمم التي احتوتها الرقعة الإسلامية من تحوم انصب إلى شواطئ العرب الأقصى ..

احتل المسلمون بالبروز ، ولسوا الطيلسان ، وأكلوا في الأديرة وعلى موائد السهافين ، وركبوا الرادين والقبلة ، وتعاملوا بالدرهم والدنانير ، وسكنوا البيوت من بناء لقسط والروم ، وعاشوا بدين واحد في أرياء لاعداد لها ، فحققوا بذلك أن الإسلام دين العالمين

ولارمتهم هذه السياحة في العرف صلباً من الدعوة ومن النبوة الإسلامية الأولى ، فلم يعرفوا في هذه الفترة مشكلة دبية تحتاج إلى حل ديبى في شئون المعيشة

من مأكل وملبس أو مسلك شائع في معاملات الناس ، ولم تظهر هذه المشكلات
لا مع ظهور الحرف على كيان الأمة الإسلامية ، خوف الفتنة من الداحل وحوف
السيطرة من الأعداء ...

وتخرج المسلمون حين شعروا بالخروج فيما بينهم وفيما يهددهم من علة أعدائهم ،
وشعروا بهذا الخروج من الدخيل الذي يتولّى بين ظهرانيهم قبل أن يشعروا به من
الدخيل الذي يغير عليهم ويصحهم بالقوة والمكيدة ...

أحدو يسكرون العادات والمراسم التي لا عار عليها في مظاهرها حين علموا أن
الدخيل في ملتهم يستمر من ورائها لترويع العقيدة التي تلازمها والتهديد للدولة التي
تقوم عليها ، ومن هنا تفتتوا على حذر إلى كل ظاهرة مجوسية أو ييرطية تستألف
ظهورها في البيئة الإسلامية ، وكاد السؤال عن الحلال والحرام يسبق كل حركة
عربية - مربية - ترتبط بمراسم الأمم المملوكة في الزمن القديم قبل دخولها في
الإسلام ، وإلى هذا الحد يرجع الشك في المراسم الأعجمية حيث كانت بين
المسلمين أو غير المسلمين

ثم اشتد هذا الإنكار للريب من الظواهر والعادات بعد روال الدولة وتخصوع
الأمم الإسلامية للدولة المعيرة عليها ، وكاد هذا الحذر أن يعلب جهود المصالحين
الذين اتسموا بالقوة من حيث أدركها أعداء الإسلام ، محضروا أفراسهم إلى التشبه
بأوثان الأعداء فيما أجادوه من أسنحة المنوم والصاعقات

تخرج المسلمون من الظواهر والأشكال الأحسية في هذا الدور تخرجاً لم يعودوه
فيما سبق من تدريجهم في أيام القوة أو في أيام الفتنة والحذر ، لأنهم شعروا بهذا
الخروج في عصر الهزيمة والخصوع وهما أدعى إلى الشك والنفور من فئة الدخيل
والخذر من صاحب الكيد المطلوب ...

ولم يكن ذلك التحرج شراً كله وإن كان فيه شركير لم يبع المسلمون من عقائده
إلا شق انتعس ، ولم يكذب بعضهم بصدقون بالحاجة حتى الآن

بعض ذلك التحرج صادر من حسنة الإسلام ، وهي سجية يستمدد المسلم

من استقلاله بصميره ومن شمول عقيدته التي لا تفصل الدين من الدنيا ولا تعله في الدين تبعاً في الدولة ولا في الدنيا ..

ورب ما على صاحب الدين الذي يفصل العقيدة عن عمل المعيشة . أن يصحح لمن يجانسه في الدين والحس واللغة لأنه يتعزى عن ذلك باحتقار الدنيا والفرار بروحه بها إلى الحياة الأخرى . ولكن عقيدة المسلم تأتي له هذا امرء وتلقى في روعه أن الله محاسبه على تعريضه في مكانته وصناعة حوزته مد كمال التفكير في الأرض علامة على صدق الإيمان وصدق العمل به في شؤون الحياة وشؤون المعاش على السواء .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعِيشًا قَبِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ① ﴾

(سورة الاعراف)

• • •

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْكُرُوا عَمَلَهُمْ لِيَسْخَطَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ نَكَا أَسْخَطَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَبِئْسَ لَكُمْ فِي دِينِكُمْ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ وَلِبِئْسَ لَكُمْ بِعِدَّةٍ حَافِيَهُمْ أَمَّا ② ﴾

(سورة النور)

• • •

﴿ وَزَيْدٌ أَنْ تُنَمَّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَخَفُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ③ ﴾

(سورة القصص)

فإذا حاقت الطرقة بالمسلم وصاعت منه الدولة واستبيحت عليه حوزته علم أنه قد حسر ديبه ودينه ولم يبق له من عراء يطمئن إليه عبر الأمل في الخلاص من هذه المهابة والحذر من الاستعراق فيها والسكون إليها وداحية النور من الغالب وتعد عنه وعن عاداته وأحواله بشعوره وتمكيده . فحذر من محاكاته فيها بدلا من النهج ٣ وتوابع مشاهيرها كما يحدث من الأمم الملوثة التي استلبتها الطرقة وطمست معالم

استقلالها وراحت تستعير المرة الموهبة من محاكاة الظواهر والأشكال ، فنانة بها عن
العزة الصادقة التي تنال بالمقاومة وإحياء المعالم للدارسة .

وبعل فيلسوف التاريخ الإسلامي - ابن خلدون - كان أول من به المسلمين إلى
هذه الخلة في العلويين وعدّها من تمام التسليم بالعلّة والمحرّمة ، هو قرى الأدهان أن
محاكاة العالّب في ظواهره وأشكاله أول عوارض الفناء والتسليم على غير أمل في
الخلاص ..

فمن حصانة العقيدة الإسلامية استمد المسلم شعور التحرج من العادات الأجيّة
فكان هذا التحرج حبراً بمقدار ما به من القصاء على بواعث المحاكاة التي تؤدّن
بالفناء والتسليم بالسيادة .

ولكن هذه الحصانة السليمة الكميّة بالسلامة لم يقتصمون بها على فهم ودراية
م تلبث أن امتزجت بعوارض الحمود والحمول فأصابتها ما يصيب المفصائل جميعاً
من المسح والتشويه كلّها حارّت العرائم وسقطت المهيم وراحت الحيرة هي العقول .
فتخرج مسلمون ادين أصيبوا بهذه الهمة من محاكاة العالّبين في أساليب القوة واليسر
كما تخرجوا من محكّاتهم فيما يهدد كيّان الأمة بالروال ويؤدّن محو انعام القومية على
تأنيح الأيام والأحداث ..

واستبد العجز بالعوس فحبل إليها أنها تركت باختيارها ما تركته في الواقع محجراً
عن محاكاة وجهلا بأسمائها ، ولا سيما حين تكون هذه الأساليب مما يسوق المعجزة
المتواكبين قهراً إلى السعي والتواضع على تحصيل العلوم والصناعات

في هذه الفترة كثر التساؤل عن أمور لم تكن موضع سؤال في صدر الإسلام
وليست هي موضع سؤال في هذه الأيام ، وسمع الاستعانة بعد الاستفتاء في
الكبريت هل يجوز قدحه ؟ وعن عذر الاستصباح هل يجوز الإصافة به في
المساجد ؟ وعن التليغون هل يجوز وضعه في المعاهد الدينية ؟ وعن الحفرافيا
وعديم الطبيعة هل يجوز تليغها للتلاميذ ؟ . ولاح هؤلاء المتحرّجين كأنهم يعيشون
في هذا العالم في سجن معلق يحشون أن يملؤا أصعباً إلى شيء فيه فينطلق منه شيطان
متربص أو مارد محبوس .

وم ندم هذه العاشية إلا ريثما تحددت الثقة في النعوس وثبتت الأقدام على مسج
الإصلاح فصحت وطأة الحرج الذي استمده المظلمون من حصانة دينهم وأبق
طرق التقدم وطرق العلم الحديث لا تفترقان وأن المسلم أولى من غير المسلم بكل علم
من علوم المعرفة لأنه مأثور بالبحث عن أسرار الخلق مطالب بالعلم والتفكير ،
وتخللت مع الجهل والحمول روايت من الحمود تخلق الإحراج في غير حرج وتصر
كثيراً حيث تدعو الحاجة إلى السير الحديث في طريق الإصلاح وتفيد أحياناً كما
اصطرت التعميل إلى بعض الروية والأناة قبل المحوم على كل شيء جديد ، لغير
نفع فيه إلا أنه يخالف القديم ..

وأغيب لعل أن روايت الحمود كانت تزول أسرع مما رالت لو لم يكن فيها
مآرب وبنات لغنة من الحاكمين ترين منافعهم ببقائها وتعرض مواردهم لنقص
وإروال عما يطرأ على الحالة الزاهنة من تبديل أو تحوير . وقد كانت الآستانة وإفاهرة
قبة طلاب الإصلاح في أرجاء العالم الإسلامي لأن الأولى كانت في مستهل نهضات
الإصلاح مقر الخلافة الإسلامية ، والثانية عاصمة الثقافة الدينية مد عدة قرون ،
وم نخل حركة من حركات التقدم في كليتها من بواقي حجة غير الضواهر التي يثار من
حولها الشقاق بين دعاة الإصلاح وجماعه الحكام المشايخين للقديم ، ومن هؤلاء
أصاب أولئك الدعاة أشد ما أصابهم من العت والتشهير ، وبما كان لهم من انجاء
والسلطنة اقتدروا على تسخير الأعوان لامتشاراة الدعاء على الأئمة والقادة
المصححين وحاطوهم بالتهمة والأباطيل ، وأسرعا نفسياً بين الجهلاء
تهمة الكفر وتهمة التواطؤ مع الأعداء على إفساد الدين

• • •

في البلاد العثمانية الخاصة للآستانة سبق الشعب رؤساءه إلى محاربة الحضرة
ومسايره انعرف العصري في شئون المعيشة التي لا تماس لها بالعقيدة ، ولكن الدولة
العثمانية تعرضت لثورة من أخطر ثوراتها حين أمر السلطان بتغيير ملابس الحمود
« لايكشاية » وتنظيم كائنهم على السبق العصري في الخيوش الحديثة ، لأن قادة
هذه الفرق - ومن ورائهم بعض أعضاء البيت المالك المناسين للسلطان - آثروا بقاء

القديم على قدمه وأوجسوا من تبديل اللباس والأنظمة في الكتاب الحديث أن يتبعه
فص كتاب الإنكشارية وتزويد السلطان بقوة من مشائته تناصره بما أراد من تعديل
نظام الوراثة ..

وفي مصر كان الخلاف على أشده بين الخديوي وحواشييه وبين أئمة الإصلاح -
وعلى رأسهم الأستاذ الإمام الشيع محمد عبده مفتي الديار المصرية - وكان باطل
الخلاف حول الرقابة على أموال الأوقاف ووظائف التدريس بالجامع الأزهر وبرامج
التعليم فيه ، وظهره على سحاسف لا تفي الخديوي وحواشييه في كثير ولا قليل ولكنها
دريعة يستخدمونها في إثارة العبار حول موضوع الخلاف الأصلي ونهايم المصلحين
نصوة البية وفساد الطوية والانتبات على ولي الأمر وأعوامه المخلصين .

وأشهر ما أشهر من هذه المعارك الصاخبة حول السعاسف معركة الفتوى التي
عرفت بفتوى الترسفال وخلاصتها الموجرة أن رجلا من الترسفال سأل مفتي
الديار المصرية من بعض عادات اللباس والطعام في أفريقيا الجنوبية ، وعن جوار
الصلاة خلف الإمام مع اختلاف المذاهب فأفتاه الشيخ رحمه الله بجواز ليس
القلسوة وجواز طعام أهل الكتاب لأنه حلال بمصر القرآن الكريم

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ (سورة المائدة)

وإن الإمام المسلم تجوز إمامته ولا وجه للاعتراض على الصلاة خلفه وإن
اختلفت المذاهب ، لأن تخصيص مسجد باتباع كل مذهب يهرق جماعة المسلمين
ولا يستند إلى أصل من القرآن والحديث أو سير الأولين .

* * *

ويخرج بنا من غرض هذه الرسالة أن نلم ولو مع الإيجاز ، بسدة من الآراء
الفقهية التي تداولها الكتاب نقداً ووداً وتشهيراً وتبريراً بعد صدور الفتوى
الترسفالية ، إذ ليس من غرضنا هنا أن نحوص في الحدل الفقهي وما يحا نحوه من
جدل المذاهب ، وما لنا من حاجة إلى ذلك لأن القضية لم تكن من قضايا الفقه ولا
كان الغلاة في حملتها على يكرون ليس القلسوة أو الأكل على المواثد الأوروبية أو

الصلاة خلف الأئمة الأحاف وجهم الشاصيون والمالكيون كما يتمق أيام الجمع و
الصلوات الجامعة مع حاشية الأمور وقد بدأ الإبدار بالحملة قبل ورود الأسئلة
وكتابة الأحوية في فتوى الترسمال ، وعلى ذلك وصل الخبر إلى دار الخلافة يومئذ فيما
رسمه إليها صاحب صحيفة الراوى اليومية وهو من أعوانها وعبوها على حدى مصر
في ذلك الحين ، وقد أشار إلى الفتوى وغيرها من معارك السياسة الخفية في ثياب
العبارة الدينية فقال :

« وكان يظن - أى الخديو - أن مجرد ظهور الفتوى كاف في إسقاط عبود الملقى
الدينى أو التوصل إلى عرله فظهر له خلاف ذلك . وإن النتيجة من كل ما تقدم أن
سمو الخديو يريد أن يجعل لنفسه سلطة دينية آتتها الأهر ومالياتها الأوقاف ، وقد
حدث هذا كثيرين وقال إن أوروبا تناب البابا والسلطان لأجل السلطة الدينية
وهذه سهلة عليا ، وإنه ما دام الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية وعصواً في
الأمر وفي مجلس الأوقاف الأعلى وفي شورى القوانين طل يتم له في ذلك عمل
فانقضى هو العتبة في طريق هذه السلطة وحربه كبير جداً^(١) »

• • •

وهذه الممارك المصطنعة هي التي أوقعت في أذهان المعقبين على أحداث العلم
الإسلامى أن المسلم يتحرج من غير حرج ويعلمو في الحمد على القديم لعبير مس ،
ويحيط بين موروثة العرف ومن العقيدة وآدابها المستفادة من أوامرها ووصاياها ،
وكل هذا وهم ينبغي أن المسلم قد تعلم من كتابه المبى على الحامدين الذين يستعدون
عقولهم لعدوات أسلافهم ويقتنون هم لأنهم وحبوهم عليها ، وإن كانوا لا
يعقلون ثم حادت سيرة المسلمين الأولين الذين تفرقوا في أنحاء الأرض على خير ما
تكون الساحة ، فعاثروا أثناء الأمم من الروم والفرس والترك والديلم والبربر دون أن
يتحرجوا نمط من أنماط المعيشة ولا بأسلوب من أساليب العرف ما م يكن فيه
ساس بالعقيدة والعبادة

فليس من روح الإسلام أن يحمى المؤمن على عادة موروثة لأنها عادة موروثة .

(١) تقرير يوسف طلعت باشا - وهي الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام صبرة منه

وليس من روجه أن يرفض عادة جديدة لأنها عادة جديدة ، ولكنه يمتصم من روح الإسلام بحصانة تعيده من سحر الطلبة فلا يتوله بروعتها ولا تمنح به إلى الغناء في عمارها والاستسلام لقيادتها . وتلك معصرة للإسلام تمنها الأمم ولا ترهد فيها وما كان لأمة أن ترهد في حصانة تقيم الحواجز بينها وبين علوها ولا تحجرها عن يسارها ولو كان غريباً عنها .

وسبيل المسلم فيما آثره مع الخلق من سلوك وعادة أن يأخذ بالعفو ، وبأمره بالمعروف ويعرض عن الجاهلين...

خاتمة

كنّا في هذه الفصول عسى أن يكون فيها جواب هاد لأنا من الناشئين
بتساءلون - هل يتفق الفكر والدين ؟ . وهل يستطيع الإنسان العصري أن يفهم
عقيدته الإسلامية على أساس من التفكير ؟ ..

وبرجح أن تكون هذه الفصول تعريفاً للجواب بكلمة " نعم " على كل من هذين
السؤالين . نعم يتفق الفكر والدين . ونعم يدرك الفكر بالإسلام وله سد من الفكر
وسند من الإيمان ...

ولكننا نكتب هذه الخاتمة وبود أن نصيغ بها سؤالاً آخر نضم هذين السؤالين
بود أن نسأل . هل يؤمن عقل الإنسان بالدين في هذا العصر ؟
ويرى فيه ديناً أحق بالإيمان به من الإسلام ؟ .

أما أن يؤمن الإنسان بالدين في أعماق وجدانه معرفة الفكر فذلك بحث طويل لا
يستقصى في سطور ولا صفحات ، ولكنه - مع حلول البية - يتضح جلياً شيئاً من
حقيقة واحدة ، وهي أن الإنسان حر من هذا الوجود غير المحدود لاند له من صفة
عميقة تربطه به أبعد عوالم من هذه الصلات الحسية التي تحصرها العلوم المتغيرة مع
العصور والسنين ..

فكيف تكون هذه الصلة ؟ ان فكر الإنسان محدود ينقطع دون النهاية من هذا
الوجود الذي ليست له حدود ، فهل تنقطع صلته بالوجود كله عند انقطاع فكرة ؟
أو يعلم حدود نهايته ويعلم علماً يقيناً أن الصلة وراء ذلك لن تكون إلا بالإيمان
لاند أن يؤمن لأنه ذهب بالفكر إلى نهايته ولم يبلغ النهاية ، ولاند - بعد طريق
الفكر - من طريق يتهدى إليه الفكر ولكنه لا يستعصيه ..

وإذ آمن بالفكر بهذا فأى دين يختاره للجماعة الإنسانية أفضل من دين
الإسلام ؟ ..

إن الإسلام دين موجود فالذي يشير على المسلم بدين غيره يريد منه أن يتركه
بدن معتقده أرفع منه في درجات الاعتقاد وأقوى منه بمطالب الجماعة ومطالب
الآحاد . وهذا ما يعتقده المسلم . فما الذي يعتقده حيراً منه إذا نظر في الإسلام وفي
سائر الأديان ؟

يعتقد المسلم في الإله أنه رب العالمين ليس كمثله شيء . وهو بكل شيء محيط .
لا يخفى درية دون درية ، ولا يختص بالجماعة فريقاً دون فريق . ولا يميز أحداً على
أحد بغير العمل والتقوى ..

• • •

ويعتقد المسلم في النبي أنه رسول هداية ، يعلم ما علمه الله ولا يعلم الغيب إلا
بذن الله ، يحاطب العقول ولا يقصرها على التصديق بالحوارق والأعاجيب ، ولا
يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً إلا ما يكسبه لنفسه من خير وما يجبهه عليها من حشر .

ويعتقد المسلم في الأنبياء كافة أنهم رسل الله بالهداية يصلقهم جميعاً حين
يصدق برسالة سيده ويصل عليهم جميعاً حين يصل عليه . يبشرون ويدعون فلا
يهلك أحد من خلائق الله بغير تدبير ، ولا تفوته الجماعة لأنه سبق في الزمن أو تأخر
فيه ، بغير حيلة له في السبق أو التأخير ..

ويعتقد المسلم في الإنسان أنه مخلوق مسئول عن عمله وعن بيته ، إن عمل
صالحاً فلتعسبه وإن أساء فعليها ، يؤاخذ الله بذنبه ولا يؤاخذ به بدنب لم يقترفه ،
ويجبه بتوبته ولا يجبه بكفارة لم يهض شواها

ويعتقد المسلم في بني الإنسان عامة أنهم أسرة من ذكر وأنثى . أكرمهم عبد الله
أنعامهم ، وأتقاهم لله أتعهم لعباده ، يتكاثرون بالأنساب ويتعارفون بالأعمال
والأنساب ، فإذا نصبت لهم موازين الحساب فلا أنساب بينهم يومئذ ولا هم
يتساءلون ..

ويعتقد المسلم في الدين أنه عهد بين المرء وحالقه ، أيما كان قسم وجه الله ، محراه
حيث أقام الصلاة بين الأرض والسماء ، وضميره حرم لا يباح إلا بما يشاء

هذا آمن المسلم بغير هذه العقيدة فإله من عقيدة خير منها فيما يعتقد إسمه في الله أو في أنبياء الله أو في خلق الله أو في مشيئة الله

وإذا قيل له لا تعتقد بالإسلام فقد قيل له لا تعتقد بشيء ولا تؤمن بالله وبحق للمسلم على الخالين أن يعلم أن التفكير يوجب الإسلام ، وأن الإسلام يوجب التفكير ..

• • •

ذلك سمحي من مناحي العقل الواسعة يحرف عنه ذو العقل الذي انتهى من بحوثه وتقديراته إلى بيد الأديان وإبكار المعتقدات ، وهي نهاية تعاب بقسطاس الفكر نفسه لأنها سوء تفكير ولا يحصر عيها في سوء التقدير للصعوبات التي استقام عليها بناء الجماعة الإنسانية منذ وجدت في التاريخ وقبل التاريخ

يعاب على هذا التفكير القاصر أنه انتهى إلى غير شيء انتهى إلى العدم ، وليس وراء الفكر عدماً بل هو وجود مطلق أرلى أبدى محيط بجميع الموجودات ومسا الفكر والمفكرين ، لا يدركه الفكر بداهة ولكن ليدركه الإيمان لا يبقى منقطعاً عن العقل والوجدان والشعور

وإذا قلنا أن هذا الفكر القاصر يعاب كذلك لأنه سوء تقدير لصعوبات الجماعة الإنسانية فليس هذا بالمعيب المهي عند من يتأمل ويريد أن يتأمل

إن حاجة النعوس إلى العقيدة في الجماعة الإنسانية برهان وأى برهان . برهان من الواقع ليكون كرهان الحنان الأبوى على مصلحة النوع في القاء . أيقده في حنان الآباء أنهم ينظرون إلى الأبناء بعين الودع كله ولا ينظرون إليه نظرة العريب الجرد من هذا الحنان ؟ ..

برهان الجماعة حق في العقل وحق في الواقع ، وعلى الإنسان الأمين لعقده ولوعده أن يعطين لهذا الحق ويبحث عنه بحث المسئول لا بحث السائل الطارئ على القضية من بعيد .

وعلى الإنسان الأمين لعقله ولتوحيده أن يرى حرمة القداسة في جماعته كما يرعاها في ضميره ، فمن سلامة الضمير أن تكون سلامة الجماعة ما يتوخاه وما يصونه ويحميه ...

وفي العالم اليوم جماعة إنسانية تعد بمئات الملايين ..
أربعائة مليون مسلم يعيشون بعقيدة قوية ويمتصون منها بحصانة قوية ..
هذا هو الإسلام ...^(١)

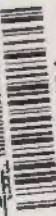
بنية حية تلود عن عقيدتها فتلود عن كيانها أو تموت ..
صانها الإسلام في وجوه أعدائها فلتنصه في وجوه أعدائه ، وأوجب ما يوجب عليها هذه الصيانة إنها تطلق للضمير آفاقه وأعماقه وتحبس للجماعة ديارها وقرارها ، وإنها لب ووجدان التفكير وإيمان . فان يكن للجماعة الإسلامية دين ، ولا بد من دين ، فلا بدليل لها من دين يهديها إلى الفكر ويهديها الفكر إليه ..

(١) هذا الممدد يشير إلى عدد المسلمين في الخمسينيات عند صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

فهرس

الموضوع	صفحة
فريضة التفكير في كتاب الإسلام ..	٣...
الموانع والأعذار ..	١٧ .
المنطق ..	٢٦ .
الفلسفة ..	٤٤ .
العلم ..	٥٧ .
الفن الجميل .	٦٨ .
المعجزة .	٧٩ .
أمام الأديان .	٨٧ .
الاجتهاد في الدين .	٩٦ .
التصوف ..	١٠٧ .
المذاهب الاجتماعية والفكرية .	١٣٠ .
الحرف والعادات ..	١٤٠ .
خاتمة ..	١٤٨ .

Abdullah Alexandria



0802184